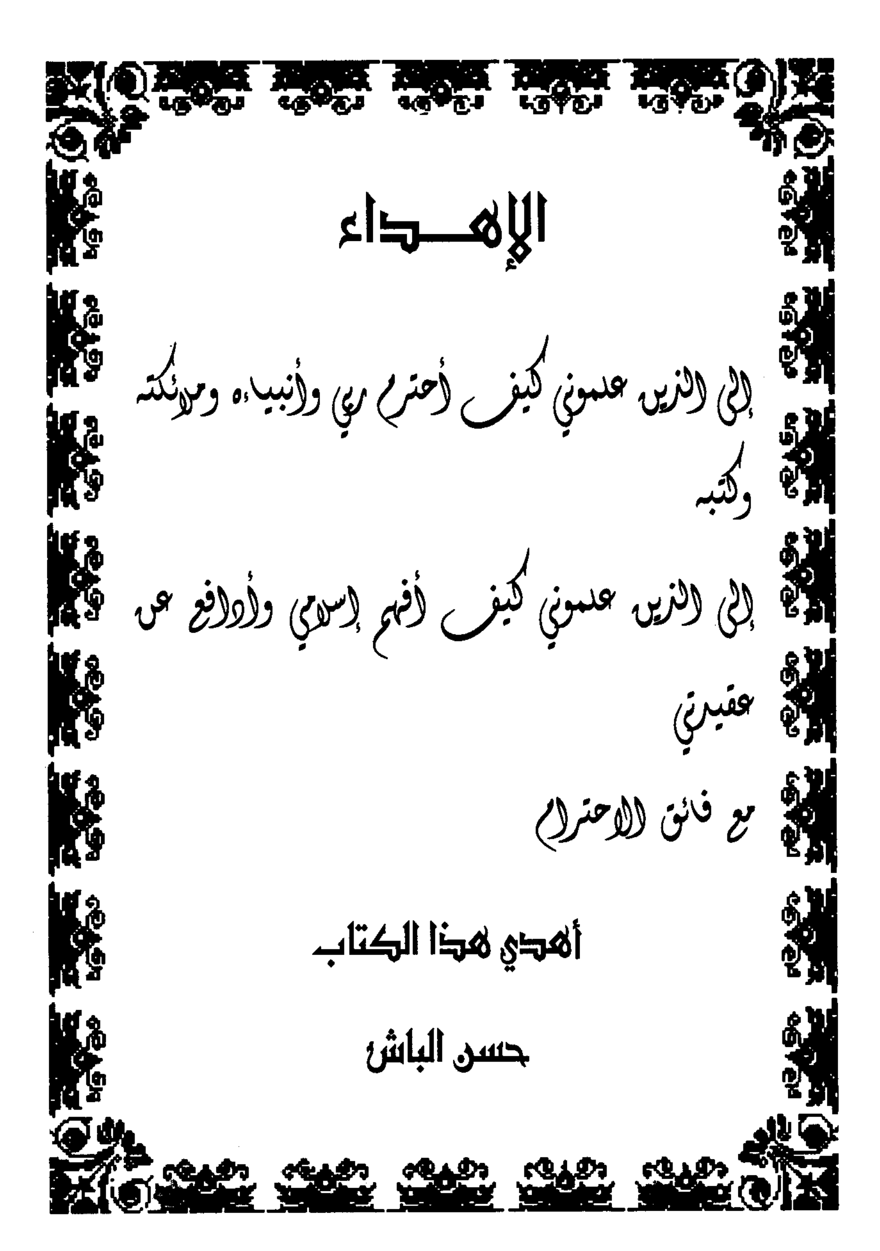


القرآن وحوار العقل
حسن الباش

رقم الايداع 1810

لدار الكتب الوطنية - بنغازي - الجماهيرية العظمى



الإهـــداء

إلى الذين علموني كيف أحترم ربي وأنبياءه وملائكته وكتبه

إلى الذين علموني كيف أفهم إسلامي وأدافع عن عقيدتي

مع فائق الاحترام

أهدي هذا الكتاب

حسن الباش

مقدمة

تأخذ كلمة حوار في الأدب خاصة وفي شؤون الحياة عامة مفهومها واضحا لدى كافة الناس فالكلمة تعني اللغة التي يتحاور بها أفرادالبشر ،وحاور يحاور تعنيان أن شخصا ما تكلم مع آخر فرد عليه الآخر ودار بينهما حوار أداته اللغة .

والقرآن الكريم يحاور الإنسان أيا كان نبيا أو رسولا أو فردا أو مجموعة أفراداً أو أقواما أو شعوباوأمما ، لكنه يحاورهم دون أن تكون اللغة وسيلة الحوار وحدها ، بمعنى أن القرآن الكريم يناقش الإنسان يسأله ويجيبه ، يعطيه أسس مسائل الكون والحياة ويدله على حلولها ، وبهذا المعنى لا يكلف الإنسان لسانه ليحاور . ولكنه من حيث يدري أولايدري يجد نفسه في حوار عقلي تتشابك فيه المسائل وقد تتعقد ، يطرح على نفسه ما يسئله القرآن ، فيجب بالمنطق العقلي الذي هو أساس التوازن والتمييز بين الخطأ والصواب ، بين الصحيح وغير الصحيح ، بين ما ترتاح له المكونات البشرية وبين ماتهتز له وتغضب منه.

ومع التسليم بأن القرآن الكريم هوالكتاب السماوي الكامل والشامل فإن مايجعل سره العظيم يعجز كل المخلوقات هو أنه كتاب الله الصالح لكل زمان

ولكل مكان ، وصلاحه هذا ينبع من كونه يخاطب الإنسان في كل عصر . يخاطبه ويرشده ويصحح مفاهيمه ، فلا العلم قادر على أن يسبق كلام الله ولا العقل دون قرآن يستطيع أن يصل إلى حالة التوازن الحقيقي بين كافة شؤون الحياة الدنيا وشؤون مابعدها .

القرآن يحاور العقل ، ليس لأن العقل قادر وحده إلى التوصل للحقيقة حقيقة الوصول إلى معرفة الله الخالق العظيم . وليس لأن الإنسان هو عقل خالص دون قلب أو نفس أو جسد ، إنه يحاوره لأنه مفتاح مكونات البشر . مفتاح النفس والجسد والضمير وماخلف هذا الجسد الآدمي الذي نراه .

يحاوره لأنه الطريق إلى الوعي . والوعي ليس حالة عقلية فقط إنما هو حالات ، عقلية ونفسية وروحية وحتى جسدية .

وعندما نقول القرآن يحاور العقل فإننا ندرك أن العقل مركز التفكير والحسابات المجردة وغير المجردة . وهو بتجريده وحساباته يستطيع أن يفكك ويركب ويحلل ويرتب ويوازن ويقارن ، وإلى أن يصل الإنسان الواعي إلى القناعة والتسليم لابد له من انتصار يحرزه العقل ويميل به إلى الصح والصواب والمنطق ، ينتصر لمصلحة التوافق مع الإنسان الواعي المدرك ، وينتصر ضد

الخرافة والأسطورة و ضدكل ماهو مخالف لطبيعة التركيبة الكونية الدقيقة التي يسيِّرها رب العالمين ويدير نظامها خالق عظيم .

والقرآن يحاور العقل لأن الإنسان لا يسلّم ببساطة رغم أن الإيمان في جنينيته ينبع من الفطرة . والقرآن لا يريد للانسان أن يسلّم وفي نفسه شيئ من السؤال والشك لا يريد للانسان أن يؤمن بالقوة القسرية المفترضة .

يحاور العقل لأن الله يريد أن يكون الإيمان حالة دائمة من الوعي والتواصل بين الكون والمخلوقات وبينه ، يحاور القرآن العقل البشري ليثبت حالة الايمان من خلال السؤال والجواب والنظر والتبصّر والتدبر والتعقّل والتفكير ليثبت له أنه مامن شيئ وجد عبثا بل كل شيئ خلق ليدل على الخالق . يحاوره بأن صانع هذه الموجودات رب له صفات ليست كصفات البشر وله ذات ليست كذواتنا ، ومانقيسهبالمقياس البشري هو في تنزّه عنه . يحاور بأن الكون لم يأت هكذا صدفة إنما رتبه خالق عظيم .

ويحاور القرآن العقل في وحدانية الخالق ، هو لا يقول له الله واحد إن رضيت أو كرهت . إنما حاوره بأنه لو وجد إلهان لتنازعا . فكل منهما يريد ما لا يريد الآخر . هذا يريد خلق التين لوزا والرمان عنبا والإنسان ذئبا وذلك

لايريد ، يحاوره بالمنطق ويقول له تفكر أيها العقل البشري لو أن للكون إلهين ماذاسيحل في الكون ؟ بل كيف يمكن أن تتصور كيفية خلق الكون قبل أن يخلق الإنسان على وجه الأرض ؟ يحاوره ويبين له أن التفكير في وجود إلهين خالقين للكون أمر مخالف لنواميس العقل والمنطق والصواب.

ويحاور القرآن العقل ليقول له إن هذا الكتاب وهذه الآيات الكريمات ليست من صنع بشر إنما هي كلام الخالق عز وجل . لم يطلب منه الرضوخ دون تفكير، إنما طلب منه أن يفكر في هذا الإعجاز ، في هذه اللغة وفي هذا التحدي لمعشر الإنس ومعشر الجن ، يفكر في تلك الأقوام السابقة وماحلّ بها من مصائب ونعيم. كيف يعجز كتبة التاريخ عن تدوين أخبارها ؟ولماذا ينقطع العقل البشري عن مواصلة الكتابة عنها ؟يفكر في عبادتهم وصناعتهم وتجارتهم ، يفكر كيف نحتوا الجبال وجعلوها بيوتا لهم ، ثم كيف فسدت فدمرها الله عليهم ؟ حاوره لأن يفكر في الفراعنة والهكسوس وأصحاب الحدائق والبتراء وبابل ، ولأن يفكر أيضا في أصحاب الكهف وذي القرنين وعا د و ثمود ، ألم يعجز العقل البشري عن تدوين تفاصيل حياتهم ؟ ألم يأت القرآن متحدّيا التاريخ ومصححا مفاهيمه ؟ نعم لقد جاء القرآن ليحاور العقل وليستفيد من العبر في الذي تركته الأقوام وراءها من قصص وعبر .

وإذا كان لهذا العقل حجة واعتراض فلينظر إلى القرآن كيف يحاوره في الانبياء والرسل . مامن أمة خلقها الله إلا بعث فيها رسولا . ولن يعذب الله قوما لم يبعث فيهم رسولا أونبيا أومصلحا، ولذلك حق القول على كافة البشر لأن الله أرسل لهم من يرشدهم ويدلهم على طريق الصواب .

بعث الله الرسل والأنبياء بشراً مثل بقية أبناء قومهم يأكلون ويتزوجون وينامون وهنا حجة القرآن البليغة على العقل الذي يحاوره . الرسل والأنبياء بشر مثلنا .يحب الناس الظلم فينشد الأنبياء والرسل العدل، يجادل الناس فيمن يكون زعيما وحاكما ؟وينشد الأنبياء التساوي أمام محكمة الله الذي يراقبهم في سرهم وعلنهم ، ويتحاربون من أجل عزة الولد وثراء المال فيأتون للناس فقراء لا يملكون المال وقد لا يملكون الأولاد . يفرقون بين الأسود والأبيض ، العربي وغيره، فيأتي الأنبياءليقولوا بالمساواة بين الناس ، هاهنا يحاور القرآن العقل البشري ليثبت له أن الأنبياء والرسل مبعوثون بوحي من الله ليبينوا للناس سعادتهم أين تكمن ، يحاوره متساءلا ألا تؤمن بهؤلاء الأنبياء والرسل الذين يريدون سيادة العدل والمحبة والاخاء والسلام وعدم الاعتداء وسلب الضعفاء حقوقهم ؟ ويرشدون الضائعين في هذه الصحراء الكونية إلى

طريق البناءوالخير والوصول الى سبيل الله الخالق العظيم ، أيها العقل السليم ألا تؤمن بهؤلاء الذين لايطمعون بشيئ من الدنيا ولا يريدون أجراً على هداهم وإرشادهم للناس ؟.

أيحب عقلك أيها الانسان أن يظلم الفقراء ويثري الأغنياء فوق غناهم؟ إن القرآن العظيم يحاور ويحاور ليربط الأمور بعضها ربطا محكما يتوافق مع النظام الالهي والترتيب الرباني ، وليتوافق مع منطق سير الحياة وسعادة البشرية .

ويحاور القرآن العقل البشري في طبيعة خلق الإنسان والحيوان والنبات، ومن ثم الجبال والبحاروالشمس والقمر والكواكب والنجوم والسموات والأرضين ، يحاوره كيف تتم النحلة عملها لتضع العسل الشافي وكيف تتخذ من البيوت في الجبال مأوى لها ، ولماذا قال لها خالقها اتخذي من الجبال وليس من غيرها؟ يحاوره في جسده ونفسه مم خلق ؟ من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب ، أكان العقل الجاهلي - (إن كان هناك عقل يتوافق مع الجاهلية) - يفكر كيف يخلق الإنسان ؟ هل كان يدرك مامعنا نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظام ثم لحم ثم إنسان ؟ فلينظرالإنسان ممّ خلق . هذا هو القرآن يحاور العقل ويقول له ألم يخلق الله للانسان عينين ولسانا وشفتين ، فكر أيها

العقل وإذا أردت الجواب فالقرآن ليس بحاجة لجواب هو يسألك وهو يجيبك فلينظر... فليتدبّر فليعقل.. فليفكر ويتبصر. والقرآن يحاور العقل في سر الحياة والموت، فأنت أيها العقل لو نظرت إلى أي خلق سترى كيف يتكون الإنسان في رحم أمه ويمكث أشهرا محددة ثم يأتي إلى عالم الشهود وينمو ويكبر، يصبح طفلا ثم صبيا يافعا ثم شابا ثم رجلا ثم عجوزا يحني ظهره. دورة حياتية محددة فإذا حركت خلاياك وفكرت بشكل صحيح سترى أن الذي خلقك فسواك فعدلك هو القادر على أن ينقلك إلى عالم آخر. فالحياة فقرة من فقرات، وسلسلة مترابطة مع عالم الذر في البداية وعالم الموت في النهاية الدنيوية. فكما كبرت وصرت رجلا فشيخا فانك مقبل على الانتقال. وهذا أمر طبيعي بالنسبة لعقل يفكر ومنطق لايخالف سنة الله وناموس الخالق.

أيها العقل.. هذه الدنيا وحياتها، معاش لك وامتحان، ومادمت جئت من عالم الغيب فلاغرابة أن تعود إلى عالم الغيب. والذي خلقك من نطفة قادر على أن يلمّ عظامك النخرة ويعيدها كما كانت. والذي جاء بك من النطفة قادر على أن يجيء بك من أي شيء يريد، لقد متعت نفسك وظننت أن السعادة هي سعادة الدنيا وهي غير قابلة للفناء وإذا بك تصل النهاية، لست مخلّدا وإلا كان قد خلّد قبلك الأقوياء والأنبياء، لقد حاورك القرآن حتى تصل إلى القناعة الحقيقية

وتصل إلى اليقين التام بأن الله لم يخلقك ولايبعثك عبثا .

وفي الحياة والموت حوار ، وفي الدنيا والآخرة حوار آخر.الموت بداية العالم الآخر، القرآن يحاور العقل . نعم إنه يبرهن بالأدلة الكثيرة أن هذه الدورة الحياتية القصيرة جدا لابد وأن تعقبها حياة أخرى . كيف ذلك ولماذا ؟ لقد حاورك القرآن في وجود خالقك ،وحاورك في طبيعة الأنبياءوالرسل ،وحاورك في التدبر والتبصر في مخلوقات الكون الواسع الشاسع ، وحاورك في خلقك وحياتك وموتك . ألا يحاورك في مصيرك وغايتك ؟ نعم إنه يحاور بالمنطق الذي لا يرفضه عقل أو وعي إنساني ، عرفت ربك وأنبياءه وكتبه وخلقه وطلب منك أن تكون ضمن دائرة المتيقنين فدخل قلبك الايمان عن طريق المعرفة والحوار . ولذلك رتب لك جزاءك ، كل من يزرع ويسقي لا بد أن يحصد. فإن زرعت شوكا ستحصد شوكا وإن زرعت ورداً ستحصد عطرا فواحاً. وهكذا فالقرآن يحاورك بالمنطق الذي تريده وقس على ذلك ماعرفته من شؤون حياتك اليومية ودنياك العملية . فالحياة تقدمة والآخرة حصاد، فلا زرع بدرن حصاد ولا دنيا بدون آخرة. أمور ترتبط ببعضها ارتباطا منطقيا وثيقا ، وطالما أن هناك ولادةً لابد أن هناك موتا ، وطالما أن هناك بداية فلابد أن تكون هناك نهاية ، وطالما أن هناك أولا فلا بد أن يكون له آخر . منطق الحوار العقلي الذي يؤمن به الساذج والمفكر

العالم والفلكي والمهندس والطبيب ، وكل بشر يعمل في هذا الكون ولايتوقف إلا بتوقف نصيبه من استمراره في هذه الحياة الدنيا .

القرآن يحاور العقل ويفسح له المجال ليطلق عنان خياله وذاكرته . فان كنت تسأل عن طبيعة هذه الآخرة فاترك السؤال في صدرك . لأن القرآن قبل أن يقول لك ما هي طبيعة هذه الآخرة يطلب منك أن تتحمل شيئا من العناء . فحتى لا تصاب بالصدمة وتصاب بغير المعقول فقد قرّب الله سبحانه لك الأمور فقال لك في الجنة خلود لأن في الدنيا الموت ، وفى النار جحيم ولهب ودخان لأن في الدنيا ظلم وجور وعداء لله وللأنبياء . في الجنة ثمار هي هي الثمار التي نعرفها . عنب وتين وزيتون ورمان ونخيل ولكنها ليست دنيونية وإنما هي أخروية تختلف في مذاقها . قد تكون أكبر وقد تكون أجمل . ولكنك أيها العقل وحتى تستوعب الأمر مر بها الله لك ولتفكيرك ولو كان عقلك أيها الإنسان يحتمل حقيقة ماادّخره الله فى جنته لعباده الصالحين لأفصح لك القرآن سر تلك الحقائق ولكن يكفيك أنك ستجد فى جنة الله ما تشتهيه وما كنت تشتهيه .

والقرآن بعد ذلك كله يحاور العقل ويترك له حرية الإختيار . فكم هو حوار العقل عظيم ورحب . بعد أن حاورك بكل ما تفكر به قال لك الخيار . حريتك بيدك فهذا طريق الله وفيه نعيمك وهذا طريق الشيطان وفيه بؤسك وشقاؤك فاختر

ماتشاء لقد حاورناك بالأسباب والنتائج فأنت حر في اختيارك وأنت الذي تتحمل نتيجة اختيارك ولن تكون مظلوما.

والقرآن يحاور العقل لأن هناك فوائد عظيمة. حوار القرآن للعقل هو حوار المنطق الالهي مع مخلوقاته . فائدته يعلم الإنسان أن لا قسر ولا كبت ولا قهر ولا ظلم ، بل بينة ووضوح والغايةالأخيرة من ذلك الوصول بالإنسان إلى طريق السلامة والرضا ، طريق الاطمئنان على المستقبل الأخروي طريق الصواب المنطقي الموصل إلى الهدف السليم .

وما دام القرآن دستورا كاملا وشاملا فإنه يعلم العقل أن يكون الناس على مستوى الحوار العقلي المنطقي بينهم . الخطأ بين والصواب بين فلا أحد يظلم أحدا، ولا أحد يسكت على ظلم وحق مهضوم ، ولا آخر يعتدي ويقهر غيره . العقل أداة الحوار والعقل يرضى بالحق ويسلم به ويرفض الباطل ويحاربه .

فليكن حوار القرآن للعقل طريقا لبني البشر المؤمنين بالله ربا وبمحمد نبيا وبالقرآن كتابا وبالإسلام دينا وبالملائكة رسل خير وحفظ وأمان .

فليكن حوار القرآن لعقلنا المسلم دليلنا لطريق الرشاد . وسبيلنا للدعوة الإسلامية الإنسانية العالمية .

والقرآن يحاور العقل :

بسم الله الرحمن الرحيم

«ياأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم (١٠) تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون (١١)»

- الصف -

صدق الله العظيم

الفصل الأول

القرآن وحوار العقل في وحدانية الله

آلاف السنين مرت على بني البشر وهم يتفلسفون ويفكرون ويضعون لبني جنسهم الأحكام والمعارف في قوانين وضعية وقوالب معرفية ، وبنوا البشر يأخذون فينتفعون تارة وينتكسون أخرى ، تراكمت الفلسفات والأحكام حتى أصبحت أكبر مما يستوعبه كتاب أوعشرات الكتب . نظروا الى الكون والوجود والموجودات فراحوا يتصورون علاقات قائمة بين الأشياء ونسبوا هذه العلاقات إلى خالق ومخلوق ومكوِّن ومكوَّن . وراحوا يتخيلون هذا الخالق فتارة يجردونه وتارة يوثنونه وأدخلوا في تصوراتهم الأساطير والخرافات وحادوا عن جادة الصواب وعن طريق العقل فوقع أكثرهم في جهل الجاهلين وسذاجة المجانين .

ويأتي القرآن الكريم من السماء على محمد -صلى الله عليه وسلم- لينسف كل الوثنيات والفلسفات الوضعية ويضع العالم بأسره أمام الطريق الواضح السالك الأمين ، يأتي القرآن وقد تخبطت العقول وتعطلت ملكة المنطق والتفكير ، وتشوهت النفوس والضمائر ، يأتي ليحاور هذا العقل البشري الذي آن أوان رجوعه الصادق الصحيح الى سبيل ربه السليم .

يبدأ القرآن الكريم قوله : « اقرأ باسم ربك الذي خلق » وقوله : « اقرأ وربك

الأكرم ، الذي علم بالقلم » والقراءة هي قراءة كل شيء ، قراءة الوجود والكون ، قراءة الحياة والموت قراءة السماء والأرض . لقد قال : اقرأ لكنه أردف أمره بالقراءة بوسيلة القراءة ، وسيلة القلم . وهذا القلم اقرأ وهذا القلم أول أسلحتك ، والقراءة- علم والعلم هو حركة العقل أولا وحركة بقية المخلوق ثانيا ، لم يقل : اشعر أو تذوق أوشم ، إنما قال : اقرأ ليكون العقل محط القراءة ومركز التفكير بهذا القرآن العظيم وماجاء به من كل شيء عظيم .

من هنا كان القرآن الكريم منذ آياته الأولى التي أنزلت على نبيّنا العظيم - صلى الله عليه وسلم - يعرّف الإنسان بذاته ، يعرفه بعقله الذي سيكون له شأن كبير في الحوار معه ، ومرتبة كبرى في تحريكه ليصل إلى قناعات واضحة لاريب فيها ولاكذب ولا خداع من ورائها ولاسيطرة . قناعات عقلية تتوافق مع النظر في الأمور بصدق ووضوح وتتوافق مع التبصّر والتدبر ومحاكمة الأمور ضمن ضوابط وموازين لم تعهدها جميع الفلسفات ولم تشهدها كافة الأحكام الوضعية ، ولم تدركها كافة الشواهد البشرية على مرّ العصور .

من أين يبدأ حوار القرآن مع العقل البشري ؟ هل يبدأ من المخلوقات أم يبدأ بالحديث عن الخالق ؟.

لا شك أن المخلوق يدل على الخالق ر لا شك أن للإنسان طريقا يسلكه في

هذا الحوار القرآني العقلي ، ولكن لكي يدرك الإنسان جوهر هذا الخلق وحكمة وجوده لا بد أن يتعرف على الخالق ، يتعرف على الله الذي هو الغاية العظيمة لكل مخلوقاته ، يدخل القرآن الكريم باب الحوار مع العقل من خلال حيثيات الحياة المحسّة وغير المحسة . فهذا العقل الذي يحاول أن يتخلص من حيرته أو يهرب من الجدال العقلي الذي يوصله إلى الإيمان يقف أمام ذلك الأسئلة التي يطرحها القرآن وهي تعجز وتقيّد الإنسان بالحجة الدامغة فلا مناص من الاعتراف بالله ولا جدوى من الشك ، ولا نتيجة إلا نتيجة واحدة توصله الى اليقين والايمان بالله الكريم العظيم .

يقول الله تعالى في سورة الملك «وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور(١٣) ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير (١٤) هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوافى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور (١٥) أأمنتم من فى السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور (١٦) أم أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصبا فستعملون كيف نذير (١٧) ولقد كذب الذين من قبلكم فكيف كان نكير (١٨) أو لم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن مايمسكهن إلا الرحمن إنه بكل شيء بصير (١٩) أمن هذا الذى هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن إن الكافرون إلا فى غرور (٢٠)

أمن هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه بل لجوا في عتو ونفور (٢١) أفمن يمشي مكبا على وجهه أهدى أمن يمشي سويا على صراط مستقيم (٢٢) قل هو الذى أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصاروالأفئدة قليلا ما تشكرون (٢٣) قل هو الذى ذرأكم في الأرض وإليه تحشرون (٢٤) ».

وفى الآية (٢٩) والآية (٣٠) من السورة نفسها يقول سبحانه : « قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا فستعلمون من هو في ضلال مبين (٢٩) قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين » (٣٠) صدق الله العظيم .

ففي هذه الآيات الكريمة حركة مستمرة من الحوار العقلي فهي لاتكاد تتوقف عند مسألة حتى تطرق العقل بمسألة أخرى . سيل من الأسئلة الاستنكارية التي لا تترك مجالا للهروب بعيدا عن المنطق . فلنتصور كيف يدور هذا الحوارويلقي على عقل الإنسان ليحركه دون توقف.

ففي الأولى تستصغر الآية عقل الإنسان الذي يحاول أن يلعب لعبة البشر. فإن أسرّ إيمانه أو كفره أو جهر بهما فإن الله عالم بحقيقة أمره ، وكيف لا يعلم الله حقيقة أمر صنعه هو وخلقه ؟ بالطبع فإن العقل يرفض العكس لأن

الإنسان (مع عدم التشبيه) إذا صنع طاولة خشبية يعرف أين وضع زواياها وأين ثبت خشبها ، يعرف أطوالها ويعرف الغاية من صنعه لها . فكيف بالذي خلق الإنسان لا يعرف سره الداخلي وجهره الخارجي .

وفي الآية (١٥). يبسط الله سبل العيش إمام الإنسان فالأرض ذلول تحت قدميه فليسع الساعي نحو الحياة ويأكل مما وضع الله فيها من الرزق ونعم . وبعد هذا السير وهذا الهدوء الساعي نحو الحياة يلفت القرآن بحواره العقل إلى جواهر الأمور لا إلى سطحيتها .

من قال لك أيها العقل أنك مكشوف أمام خالقك ؟ ومن قال لك اسع في الأرض بحثا عن الرزق ؟ هو الذي يقدر أن يخسف بك الأرض ويزلزلها ، لقد جعلها ربك ذليلة تحت قدميك وهو الذي يستطيع جعلها زلزالا يدمرّ ولايذر وهو الذي جعل لك السماء بنجومها نورا تهتدي به في ظلمات الليل وهو القادر على أن يجعل هذه السماء تنزل عليك دمارا يقضي عليك.

لكن الله لا يريد دمار خلقه بل يريد سعادتهم فلا تستعجل أيها العقل وتحكم بأحكامك التعسفية سنحاورك حتى تصل ، ولسنا نحاورك لترعب وتخاف وتنهار ،انظر ، هذه الطيور ، انظر كيف تبسط أجنحتها ويذلل ربها لها الهواء كما

يذلل للإنسان الأرض . انظر إليها وهي باسطة الأجنحة وتظل طويلا على بسط أجنحتها ، كيف لا تقع وتهوي إلى الأرض ، هل هي قادرة على ضبط نفسها والمكوث في الجو وقتا طويلا أم أن الله الذي سخر لها الهواء هو الذي يمسكها ويحفظها من السقوط ؟

وفي الآية (٢٠). يحاور القرآن العقل ويسأله مستنكرا هل تستطيع أي فئة أو أي جنود أن يحموك من قضاء الله . إنه لا يدفع عن الإنسان عذاب الله لا جند ولا قوى.

وفي الآية (٢١) مابالك أيها العقل لو أن خالق السماء منعها من إنزال المطر ومنع الأرض من منافع الدنيا ماذا يحل بالإنسان ؟ هل يبق شبع في الأرض أم أن الجوع يقتل البشر في أيام ؟

ويحاور القرآن العقل فيضرب مثلا من واقع الحياة . فالأعمى الذي يسير مكبًا على وجهه ليس كالبصير الذي يمشي رافعا رأسه إلى الأعلى . والذي يعرف الحقيقة ويطمئن لخالقه ليس كالحيران الذي يسير متخبطا لا يعرف ماسبب وجوده في الأرض ولا يعرف مصيره .

وبعد هذا الحوار ، بعد هذه الأسئلة الإستنكارية وبعد ضرب الأمثلة تأتي آيات الكتاب الكريم لتعرف هذا العقل على الله وتوصله إلى الحقيقة المرتبطة

بالمقدمات ، إن الله هو الذي خلقكم أيها الناس وخلق لكم البصر والبصيرة والسمع والإحساس والقلوب والضمائر . إنه هو الذي خلقكم في الأرض ونشركم فيها وفرّقكم على ظهرها ولذلك كله فقد أقر النبي - صلى الله عليه وسلم - وهو أعقل العاقلين أن الله ربنا هو الرحمن الرحيم به آمنا وعليه توكلنا .

فالسلسلة العقلية لحوار القرآن سارت حسب طبيعة العقل الذي يتدرج من الأبسط الى الاعلى حتى يصل إلى جوهر الحقيقة والغاية من الحوار وهذه الغاية هي الوصول الى الايمان بالله خالق كل شيء والقادر على على كل شيء وهو لطيف خبير عليم . ويقول تعالى في سورة الواقعة (نحن خلقناكم فلولا تصدقون (٥٧) أفرأيتم ماتمنون (٥٨) أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون (٥٩) نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين (٦٠) على أن نبدل أمثالكم وننشئكم في مالا تعلمون (٦١) ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون (٦٢) أفرأيتم ماتحرثون (٦٣) أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون (٦٤) ولو نشاء لجعلناه حطاما فظلتم تفكهون (٦٥) إنا لمغرمون (٦٦) بل نحن محرومون (٦٧) أفرأيتم الماء الذي تشربون (٦٨) أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون (٦٩) لو نشاء جعلناها أجاجا فلولا تشكرون (٧٠) أفرأيتم النار التى تورون (٧١) أأ نتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشؤون (٧٢) نحن جعلناها تذكره ومتاعا للمقوين (٧٣) فسبح باسم ربك العظيم (٧٤).»

تتسع دائرة الحوار القرآني للعقل وتدخل التفاصيل فتتعرض لقضايا قد يكون الإنسان نسيها فإذا بالآيات الكريمة تصدم العقل وتلفت انتباهه فينظر إلى نفسه وحوله وفي داخله ، تحيط به الحجج العقلية من كل جانب ولا تتركه حتى يخر ساجدا معترفا بالقدرة الالهية .

أيها العقل بل أيتها العقول الشاردة نحو خالقنا الإنسان ابتداء بعد أن لم يكن شيئا مذكورا . هل تصدق ؟ إن كنت في شك أو ريب ، إن كنت لا تصدق فنحن نسألك عما تقذفه من منيّ في الرحم . أنتم تخلقونه ، أنتم الذي تجعلون النطف بشرا ؟ أم الله الخالق القادر المصوّر . إن الله خلق النطفة وصورها وأمدها بالروح والحياة ألا تصدق ؟ إن كنت في شك في الخالق فنحن نسألك : نحن قدرنا الموت وآجال البشر فمنهم من يموت شابا ومنهم من يموت عجوزا فهل غير الله القادر على إحياء الموتى ؟ أوليس الذي قدر على البداءة بقادر على الإعادة بطريق الأولى والأخرى؟ ألا تصدقون بالبعث والنشور وتقرون به ؟

إن القرآن الذي يحاور العقل في الخلق وإعادة الخلق بعد الموت يؤكد أن الله سبحانه لا يفوته شيء نريده ولا يمتنع منا أحد عنه مهما أتى من القوة والجاه والسلطان في الدنيا وما الله بعاجز عن إهلاك بني البشر وابدالهم بغيرهم

لقد علمتم النشأة الأولى ولم تكونوا شيئا حيث خلقكم الله من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة ، أفلا تتذكرون ؟ أفلا تتذكر أيها العقل بأن الله قادر على إعادة البشر بعد الموت؟.

ويحاور القرآن العقل ويدفع الإنسان للنظر في الأرض التي يزرعها ويحرثها ويسقيها ويجني ثمرها ويحرق حطبها . يحاور في شؤون حياته العملية ليوصله إلى القناعة بأن الله هو الذى ينبت الزرع ويثمر الثمر ويبعث الماء .

لقد جاء حوار القرآن متسلسلا حسب طبيعة يريدها العقل أو يفكر فيها ، لأن الله سبحانه الذي خلق الخلق يعرف مايدور في نفوسهم وعقولهم .

فنلاحظ أن الله سبحانه لما ذكر ابتداء الخلق وما فيه من دلائل وحدانية الله ذكر بعده الرزق لأن به البقاء وذكر أمورا ثلاثة : المأكول والمشروب ومابه إصلاح المأكول والمشروب ورتبه ترتيبا حسنا فذكر المأكول أولا لأنه هو الغذاء وأتبعه المشروب لأن به الاستمرار ثم النار التي بها الاصلاح ، وذكر من أنواع المأكول الحب لأنه هو الأصل . ومن المشروب الماء لأنه أيضا هو الأصل وذكر من المصلحات النار لأن بها إصلاح أكثر الأغذية.

أفرأيتم ما تحرثون ، أخبروني عما تحرثون من أرضكم بها البذر أأنتم تنبتونه وتحصدونه زرعا فيكون فيه السنبل والحب أم نحن نفعل ذلك إنما منكم البذر وشق الأرض فاذا أقررتم بأن إخراج السنبل من الحب ليس إليكم فكيف تنكرون إخراج الأموات من الأرض وإعادتهم ؟ صحيح أن الحرث من فعلكم لكن الزرع لله سبحانه هو ينبته على اختياره لا على اختياركم .

لو يشاء الله لجعله حطاما منكسرا هالكا لا ينتفع به الناس ، فحوار القرآن للعقل يتوجه إلى من يظن من البشر أنه قادر على البذر والزرع والحصاد والحفاظ على الحبوب ، أليس الله قادرا على إهلاكه ؟ وعلى تسليط الآفات والحشرات عليه . ودفع الآفات لايتم إلا بإذن الله . فإذا أراد الله نسف هذا الزرع فتكون النتيجة حيرة العقول وأسف النفس ولومها وبقاؤها على ندمها الى ماشاءلها .

بعد هذا الحوار العقلي والمنطق المعجز يوصلنا القرآن الكريم إلى النتائج لأنه لا مقدمات بلا نتائج ولا إقرار دون حوار مقنع . تأتي الآيات اللاحقة لتقول على لسان النادم إنا لمغرمون . إنا ملزمون غرامة على ما أنفقنا ومهلكون لهلاك رزقنا.

يقول تعالى (إن عذابها كان غراما) الفرقان آية 65 - فالهلاك يلزم لزوما كليا في حق من كفر بالله وأنكر وحدانيته .

أما الشراب فإن الآيات القرآنية الكريمة تعود الى سياق الحوار العقلي. أفرأيتم الماء الذي تشربون أخبروني عن الماء الذي تشربونه لتحيوا به أنفسكم وتسكنوابه عطشكم من أين تأتون به ؟ إذا منع عنكم أأنتم اعتصرتموه من السحاب أم نحن الذين ننزل المطر فتشربون منه وتسقون زرعكم . أليس هذا الماء حياة لكم في كافة الوجوه ألا يستحق من صنعه لكم الشكر والاخلاص والعبادة ؟ ولم تنكرون قدرة الله على الاعادة ؟ لو نشاء أيها الناس لجعلنا هذا الماء شديد الملوحة ومرا لا يفيد بل يضر ويقتل.

إن حوار القرآن للعقل يأخذ بالأساسيات التي ركب الله عليها الكون. فبدأ بالترائب ومرّ بالماء وانتقل الى النار التي هي عنصر أساسي من عناصر تركيب هذا الوجود . أيها الناس أيتها العقول أجيبوا من قلوبكم واستمعوا ببصيرة ثاقبة ، وأخبروني عن النار التي تظهرونها بالقدح من الشجر الرطب أأنتم أنشأتمشجرتها أم نحن الخالقون للشجر ولغيره. وإذا عرفتم قدرتي فاشكروني ولاتنكرون قدرتي على البعث والحساب والجزاء . لقد جعلناها تذكرة . إن حوار القرآن للعقل يصل إلى الغاية التي أرادها الله لبني البشر . لقد جعلناها تذكرة..

لمن يريد الإيمان ويخاف النار الكبرى وعذاب جهنم. إن حوارنا معك أيها العقل تذكرة كي تعود إلى هدى الله كي تعود إلى الاعترف اليقيني بالله الخالق الواحد. لقد جعلنا النار التي تحرقون بها الشجر في الدنيا تذكرة للنار الكبرى في الآخرة، ولكن لا تقف الغاية عند التذكرة بل إنما جعلنا النار أيضا منفعة للمسافرين الذين ينزلون القفر والأمكنة الخالية من السكان ومنفعة لكافةالناس في طبخهم ونفخهم وتدفئتهم.

أيها العقل لقد حاورناك، سألنا وأجبنا والحوار يمتد ويمتد ليكون الايمان قويا لايتصدع، فسبح باسم ربك العظيم الذي بقدرته خلق هذه الأشياء المختلفة المتضادة، الماء الزلال العذب البارد ولو شاء لجعله ملحا أجاجا. كالبحار المغرقة وخلق النار المحرقة وجعل هذه منفعة لهم في معاشهم في دنياهم وزجرا لهم في آخرتهم وعذابا للعاصين والمنافقين منهم.

هكذا يحاور القرآن حركة العقل تتصاعد بتصاعد العمليات العقلية التحليلية التي تبدأ بالسؤال والتبصر والتدبر والمقارنة. وكل ذلك بطلب من رب العالمين الذي يرفع المؤمنين العاقلين درجات ويقربهم منه لأنهم ليسوا كالذين يولّون وجوههم وقلوبهم وعقولهم ولا يريدون الايمان ولا الحوار يقبلون على

أنفسهم أن يظلوا جاهلين بربهم، جاهلين بالمنطق جاهلين بالكون والوجود جاهلين ما في أنفسهم وحياتهم.

ويقول تعالى في سورة الطور : «فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين (٣٤) أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون (٣٥) أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون (٣٦) أم عندهم خزائن ربك أم هم المصيطرون (٣٧) أم لهم سلم يستمعون فيه فليأت مستمعهم بسلطان مبين (٣٨) أم له البنات ولكم البنون (٣٩) أم تسألهم أجرا فهم من مغرم مثقلون (٤٠) أم عندهم الغيب فهم يكتبون (٤١) أم يريدون كيدا فالذين كفروا هم المكيدون (٤٢) أم لهم إله غير الله سبحان الله عما يشركون (٤٣)».

وفي الآية (٤٨) يقول تعالى : «واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا وسبح بحمد ربك حين تقوم» (٤٨).

في هذه الآيات الكريمة حوار تأتي لغته ومعانيه وأفكاره متحدّية، وبهذا التحدي صدم للعقل فهو أشد صدما من صواعق الكهرباء لكنه يبقى في إطار الحوار وطالما أن شدة الحوار تتناسب مع طبيعة العقل فقد جاء في هذه الآيات داعيا العقل إلى تقبل النقاش ليصير إلى الغاية وهو الاعتراف بحقيقة الله وقدرته التي لا يصل لجزء منها أي مخلوق على وجه الأرض.

بداية الآيات الكريمة يتحدى القرآن عقول البشر ليأتوا بكلام ككلام القرآن وهذا ما سنتركه لحينه.

أما في بقية الآيات فيدور حوار القرآن للعقل حول عدة أمور أولها مسألة الخلق، فالقرآن يحاور ويقول أم خلقوا من غير شيء أم وجدوا من غير موجد وغير واسطة من أم وأب. أهم كالجماد لايعقلون، أم أنهم بشر يحسون ولهم أدمغة يحركونها باتجاه الحوار المنطقي والاعتراف بالحقيقة، حقيقة وجود الخالق، ألم يخلقوا من مضغة أم هم الخالقون ؟ أم خلقوا السموات والارض ؟ إنهم ليسوا ذاك ولاذلك. إن الله خالقهم وخالق السموات والأرض فليؤمنوا أن الله خالقهم ورازقهم ومحييهم ومميتهم.

ويحاور القرآن العقل متحديا هل عند البشر مفاتيح الرزق والمطر أم عندهم مفاتيح الرسالة حتى يختاروا من يكون نبيا أم غير نبي ؟ أم هم المسيطرون الذين يأمرون وينهون دون أمر أو نهي من الله ؟ وإذا جاز للعقل أن يرفض هذه الحقائق التي يحاور القرآن العقل حولها فإن القرآن يصعد بالحوار ليتحدى أكثر فيسأل إذا كانوا يدعون العقلية والمنطق والقوة والاستغناء عن رب العالمين فهل لهم سلّم يصعدون به إلى السماء ليأخذوا كلام الملائكة وما يوحى إليهم من علم الغيب حتى يعلموا ما هو كائن من تقدم هلاكه على هلاكهم

وظفرهم في العاقبة دونه كما يزعمون، وإذا كانت العقول تدعي أنها تعلم علم الغيب فلتأت بحجة ظاهرة على ذلك.

وفي هذا الحوار المتحدي تسفيه للعقول المتحجرة. العقول التي تسير في طريق العوج وقد وصل بهم الغباء حتى نسبوا إلى الله البنات رغم كرههم لهن ومن كان عقله بهذا المستوى فلا عجب أن ينكر البعث بعد الموت، فالقرآن يحاورهم وهم بعد ما يزالون في تخبطهم العقلي ولم يدركوا أنهم وقعوا في ثلاثة أنواع من الكفر أولها النجيم لأن الولادة خاصة بالأجسام والله متنزه عن ذلك، وثانيها تفضيل أنفسهم على ربهم حيث جعلوا الإناث له ولهم الذكور وثالثها استهانوا بأكرم خلق الله عليه وهم الملائكة إن هذا الجهل الذي امتازت به عقول الجهلة والجاهلين كان كالاغلاق المانع تقبل الحوار العقلي ولذلك فإن القرآن لم يترك هذه العقول ولا أصحابها بل استمر يحاورها فقال لهم أيريدون جائزة وأجرا على ماجئتهم به من نبوة ودعوتهم إليه من الدين الحنيف، أم عندهم علم الغيب يعلمون أن ما يخبرهم به رسول الله – صلى الله عليه وسلم – من أمر القيامة والبعث بعد الموت هو باطل ومرفوض ؟

وإذا كان كل ذلك لا ينفع للقناعة والاقناع فإن القرآن يستمر بالحوار ملخصا الهدف والغاية وهو الاعتراف بوحدانية الله. يقول حوار القرآن أم لهم

إله غير الله يخلق ويرزق ويعطي ويمنع يرفع ويضع يعز ويذل. فسبحان الله المنزه عن أن يكون له مثل، فليفهم العقل النظيف أن الله واحد لاشريك ولا مثيل له لدى الناس والعالمين إنه الرحمن المنزه عن التجسيم وعن التشبيه، إنه الله الواحد الأحد والفرد الصمد.

وتتسع دائرة الحوار القرآني للعقل من خلال مناقشة العقول التي أشركت بالله عن جهل وعن انحراف حتى أنها رضيت أن تدمج الحقائق بالأساطير والخرافة بالدين. يحاورهم الله في أن الله واحد ليس له شريك. وليس له ولد أو بنت وليست الأصنام والأوثان والتصورات حول تعدد الآلهة سوى من صنع الجهل والأسطورة والخرافة وهي لا تمت بصلة إلى حقيقة الله الخالق العظيم.

وإذا اعترفت العقول بأن هناك خالقا للوجود فما المبرر أن يجعلوا لله ندا. وما المبرر أن يجعلوا لله ولدا أو بنات، وما الداعي لعبادة هذه الأصنام والأوثان ؟ إن إنكار وحدانية الله جهل بحقيقة الحقائق العقلية، وجهل بحقيقة الطريق المنطقي الصحيح ومن هذا الجهل جاء رفض المشركين الجاهلين.

إن أصحاب هذه العقول المغلقة لايريدون أن يكون مدبّر الكون واحد ولايريدون أن يكون مسيّر حياة الإنسان واحد ولايريدون إلا أن يحشروا أنوفهم

في ظنهم أنهم قادرون على فعل شيء هو خاص بقدرة الله سبحانه.

يقول تعالى في سورة الزخرف من الآية (١٥) - (٢٠).

«وجعلوا له من عباده جزءا إن الانسان لكفور مبين (١٥). أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين (١٦)، وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا ظل وجهه مسودّا وهو كظيم (١٧)، أو من ينشأ فى الحلية وهو فى الخصام غير مبين (١٨). وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا أشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسألون (١٩). وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم مالهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون (٢٠)».

إن حوار القرآن للعقل يستند هنا إلى سؤال استنكاري لكنه أيضا يستند على سير أغوار النفس البشرية ليعرّيها أمام الحقيقة ويكشف تناقضها وازدواجيتها. وفي ذلك درس قرآني عظيم. القرآن يحاور ويكشف ويسخر ويثبّت خزي الجاهل المتناقض مع نفسه. فإذا كنتم تدعون أنكم الأقوى والأفضل فكيف تومنون بوجود الإله الواحد الخالق ثم تقولون أن الملائكة بنات الله. إذا كنتم الأعقل والأكثر منطقية فإن ذلك يخالف زعمكم وجهلكم. فإن القادر على خلق السموات والأرض لا يحتاج إلى شيء يسانده ويقويه أو يستأنس به، هل

تعتقدون أن خالقكم يفضل اختيار البنات على الصبيان ؟ هل خصكم بالذكور. فالجاهل يتوهم أنه هو نفسه يختار الذكور بينما الخالق يختار الإناث !! ثم لماذا عندما ينجب أحدهم بنتا يسود وجهه ؟ كيف تنسبون للخالق البنات إذا ؟ إن القرآن يحاور وينبه على فراغ عقولهم وسخافة تفكيرهم والذى بلغ حالة من النقص إلى هذا الحد كيف يجوز للعاقل اثباته لله الخالق.

لقد حاورهم القرآن كثيرا حول زعمهم هذا وقد جاء في سورة النحل الآية (٥٧) «ويجعلون لله البنات ولهم ما يشتهون» وقال فيها أيضا فى الآية (٦٢) - «ويجعلون لله ما يكرهون» وقال في سورة الإسراء آية (٤٠) وهو يوبخهم «أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثا إنكم لتقولون قولا عظيما» وقال في سورة الصافات آية (١٥٣) «اصطفى البنات على البنين ؟» وقال في سورة الطور آية (٣٩) «أم له البنات ولكم البنون ؟».

ويثبت القرآن الكريم من خلال حواره للعقل مرة أخرى أن اختيار الناس للبنين واختيارهم البنات له سبحانه ما هو إلا الجهل بعينه لأن الأنثى ضعيفة في جسدها وعقلها فلذلك اختاروا الزينة والحلي لها حتى تعوض ما نقصها. أما الرجل فلا يحتاج لحلية لأن سماته التي خلقها الله عليه هي سمات القوة والعقلية

والاحتمال والتفكير فالقرآن يحاججهم ويحاورهم هل ترضون أن يكون الذكر لكم وهو القوي العاقل وأن تكون الأنثى لله وهي الضعيفة التي تحتاج لعون ؟

ثم ها هي عقولهم تتطاول في جهلها فتقول إن الملائكة بنات الله وهم عباد الرحمن، إذا كيف عرفوا أن الملائكة بنات أو ذكور ؟ هل شهدوا كيف خلقهم الله. هل كانوا حاضرين عندما خلق الله الجن والملائكة وآدم إلخ وستثبت شهادتهم الكاذبة في سجل أعمالهم حتى يروها يوم الوعيد والحساب.

ويسخر القرآن من عقولهم مرة أخرى حين يدّعون أن عبادتهم للملائكة هي بإرادة الله ولذلك نسبناهم له. إن هذا الإدعاء باطل فليسكتوا وليخرسوا لأنهم لا يملكون العلم ولا الدليل على كل ما يدعونه ويكذبون به.

وقال تعالى في سورة الزمر : « ألا لله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه أولياء مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم في ما هم فيه يختلفون. إن الله لايهدي من هو كاذب كفّار(٣)، لو أراد الله أن يتخذ ولدا لاصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه هو الله الواحد القهار(٤) ».

فالقرآن الكريم يحاور في مسألة على العقل أن يناقشها وهي أن الله القادر على كل شيء لو أراد أن يتخذ ولدا لاختار من خلقه ما يريد. فدعواهم أن

عبادتهم للأصنام والأوثان ما هي إلا لتقربهم من الله هي دعوى باطلة لأن هذه الأصنام لن تكون واسطة بينهم وبين الله. إن الله تنزه عن الشريك والولد فكيف تتقبل العقول أن تكون حجارة صماء واسطة بين الناس وبين الخالق الأحد فسبحانه هو الله الواحد القهار. سبحانه فقد تنزه جل وعلا وتقدس عن الشريك والولد لأنه هو الاله الواحد الأحد المنزه عن النظير والمثيل، القاهر لعباده بعظمته وجلاله. إنه الواحد المنزه عن اتخاذ الولد. وهو القهار وكل مخلوقاته مقهورة وهذا دليل عقلي على نفي الشركاء والأنداد. إن كل شيء مقهور تحت قهره فكيف يكون شريكا له.

ويقول تعالى: «ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أتنبئون الله بما لا يعلم فى السموات ولا فى الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون» يونس (١٨).

فنلاحظ هنا كيف يبين القرآن الكريم صفات المعبودات التي يعبدونها فهو يصفها ويدعو العقل لمناقشة العبادة استنادا على النفع والضرر. وطالما أن العقل يميز بين الضرر والنفع وبين الخير والشر فما عليه إلا أن يفكر في هذه المعبودات ليصل مباشرة إلى حالة من الخزي والخجل. العقل لا يقبل أن يكون المعبود من صنع العابد ولا يقبل أن يكون المعبود أضعف من العابد. إنهم يعبدون من دون

الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم لأن الأصنام جمادات لا تقدر على نفع ولا على ضر. والمعبود ينبغي أن يكون مثيبا معاقبا حتى تعود عبادته بجلب نفع أو بدفع ضر. إنهم غارقون فى جهل العقل حتى أنهم قالوا إن هذه الأصنام شفعاؤنا عند الله تشفع لنا فيما يهمنا من أمور الدنيا وفي الآخرة إن يكن بعث وحشر.

ثم يتساءل القرآن الكريم موبخا أتنسبون لله ولدا وتخبرونه به وهو لا يعلم بذلك ! كيف يكون هذا الخالق الذي تؤمنون به لا يعرف كل شيء حتى تأتوا لتخبروه أن له ولد ! عجبا لهذه العقول لو أنها تلجأ إلى المنطق المادي أو المعنوي أو أي منطق ستجد أنها جاهلة ومخالفة لأبسط المعارف العقلية والمنطقية.

ويقول سبحانه وتعالى « أفرأيتم اللات والعزى، ومناة الثالثة الأخرى، ألكم الذكر وله الأنثى، تلك إذن قسمة ضيزي، إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى، أم للانسان ما تمنى، فلله الآخرة والأولى، وكم من ملك في السموات لاتغني شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى، إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الأنثى، وما لهم به من علم إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغني من الحق شيئا » سورة النجم (١٩) - (٢٨).

فعلى الرغم من أن الخطاب فيه خصوصية لمشركي مكة إلا أنه يعطينا - ومن خلال حوار القرآن - درسا في التوحيد. القران يحاور بالمنطق ويتحدى فيقول أترون هذه الأصنام التي تعبدون من دون الله ؟ هل توحي لكم بشيء ؟ كما أوحي إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - . إن كانت أوحت لكم بشيء فخبروا وأثبتوا ولكنكم جهلة تعبدون ما لا ينفع ولا يضر. فحركوا عقولكم لتروا أنكم كنتم في ضلال وظلام، إن القرآن يستفهم موبخا أتجعلون لله البنات والأصنام بنات الله ؟ ما هذه القسمة غير العادلة وغير المنطقية والخارجة عن منطق الصواب مائلة عن الحق. لقد جعلتم لربكم ما تكرهون لأنفسكم فهل من عاقل يقبل ذلك الحكم وتلك القسمة ؟

ويستمر حوار القرآن معهم فيقول كاشفا ما فعلوه إن هذه الأصنام أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم لقد جعلتموها آلهة وهي ليست بآلهة ولا معبودة لأنها من صنعكم. وقد أكد القران الكريم مرارا في عدة سور هذه المسألة. وما تكرارها إلا تأكيد على زعمهم وبطلان عبادتهم قال تعالى في سورة يوسف الآية ٤٠ « ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم » وقال تعالى في سورة الأعراف آية (٧١) « أتجادلونني فى أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما نزل الله بها من سلطان. »

إن كل ذلك ليس إلا وهما وهو مخالف للعقل لأنه يستند على الظن والظن شك وعدم يقين، إن توهمهم باطل لأنه نابع من شهوة في النفوس ومن وسوسة الشيطان إن قمة الجهل أن يترك الانسان عبادة الواحد القهار إلى عبادة الوهم والظن والضلال رغم وضوح ألف دليل ودليل عقلي وغير عقلي على وحدانية الله العزيز.

وإذا كانت العبادة وتصور الخالق مجرد أمنيات يظن الانسان أنه يحققها فهي ليست كذلك لأن المعبود حقيقة وليس وهما وأمنية يصنعها الظن والزعم.

إن لله الآخرة والأولى. فهو المعطي وهو المانع وليست أمانيكم ولا أصنامكم هي المانعة أو المعطية.

ويستمر الحوار القراني مع هؤلاء عن طريق التحدي والحجة العقلية المنطقية فكم من ملك ممن يعبد هولاء يرجون شفاعتهم عند الله ؟ لا تغني شفاعتهم شيئا فكيف تقبل شفاعة الأصنام مع حقارتها ودونيتها ؟ إنها جمادات لا تبصر ولا تسمع ولا تعقل شيئا. إن الملائكة عباد مكرمون وعلى الرغم من ذلك لا تقبل شفاعتهم إلاّ إذا أذن رب العالمين بذلك.

إذا كانت الملائكة لا تقبل شفاعتهم إلا بإذن الله فكيف تقبل شفاعة الأصنام، وهل أصلا للحجر عقل وقلب وأمر ونهي حتى يكون له وجود عقلي

أو وجود محترم عند خالق السموات والأرض ؟ فلينظر العقل وليحلل وليقتنع أخيرا بهذا الحوار العقلي الذي غايته انتشال الجاهلين من كهف الظلمة والكفر والضلال.

وأخيرا يؤكد القرآن الكريم ويكشف كذبهم وظنهم وشكوكهم فهم الذين ينسبون لله البنات ولهم جزاء ذلك عذاب الجحيم لأنهم أساسا لا يؤمنون بالاخرة وما أقوالهم بأن الأصنام سيشفعون لهم يوم الاخرة ما هي إلا كذب وبهتان فهم لا يوقنون بالبعث والنشور إنما قالوا ذلك على سبيل الاحتياط. أي أنهم يقولون إن كان هناك نشور فلنا شفعاء وإن لم يكن هناك نشور فما خسرنا شيئا وهذا بالطبع هو قمة السخف العقلي والجهل، فإذا أريد للعقل أن يصبح عقلا نظيفا فما عليه إلا رفض هذا الجهل وهذا الخداع الذي لا يتوافق مع عقلية المخلوق الذي فضله الله على كافة مخلوقاته إن هو سار في طريق الإيمان والعلم.

إن ظنونهم التي أوصلتهم إلى قولهم أن لله البنات هي ظنون كاذبة وهي ترشدهم إلى طريق الضلال والجهل لا إلى طريق النور والعلم. فليسلك الانسان العاقل طريق العقل حتى لا يقع في مساوىء الظن وظلمات الشك والحيرة والضلال.

ويقول الله تعالى في سورة فاطر آية (٤٠) «قل أرأيتم شركاءكم الذين

تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السموات أم آتيناهم كتابا فهم على بينة منه بل إن يعد الظالمون بعضهم بعضا إلا غرورا).

وفي نفس السبيل فالقرآن يحاورهم على لسان الرسول محمد - صلى الله عليه وسلم - ويجادلهم فيما يدعون حول تلك الأصنام التي يدعون أنها آلهة. أخبروني عن شركائكم الذين تدعون من دون الله. ونلاحظ أسلوب السخرية والتوبيخ والتأنيب لهؤلاء المشركين لاسيما حين يحاورهم من خلال سؤاله بم استحقت هذه الأصنام التعظيم والتقديس ؟

أروني ماذا خلقوا من الأرض ؟ أي شيء خلقته هذه الأصنام في هذه الدنيا من المخلوقات حتى استحقت العبادة مع الله ؟ هل شاركوا الله في خلق السموات والأرض فاستحقوا بذلك الشركة معه في الألوهية ؟ أم أنزلنا عليهم كتابا من السماء ينطق على أنّا اتخذناهم شركاء فهم على بيّنة منه وعلى بصيرة وحجة وبرهان في عبادة هذه الحجارة والأوثان. وبعد ذلك يقرر القرآن الكريم نتيجة صدمهم بالبينة الواضحة : ليس لهم حجة على ماهم عليه من الضلال وإنما عبدوا هذه الأوثان والحجارة بسبب تغرير الأسلاف للأخلاف وإضلال الزعماء لأتباعهم بأنهم يشفعون لهم عند الله بالتقرب إليه.

وقال الله تعالى فى سورة الشعراء (واتل عليهم نبأ إبراهيم، إذ قال لأبيه

وقومه ما تعبدون، قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين، قال هل يسمعونكم إذ تدعون، أو ينفعونكم أو يضرون، قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون، قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون، أنتم وآباؤكم الأقدمون، فإنهم عدو لي إلا رب العالمين، الذي خلقني فهو يهدين، والذي هو يطعمني ويسقين، وإذا مرضت فهو يشفين، والذي يميتني ثم يحيين، والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين) الآيات من (٦٩) - (٨٢). ففي هذا الحوار مقابلة عظيمة بين ما يعبد المشركون وبين ما يعبد الأنبياء والمؤمنون ولكي يزيد تحديهم فقد ضرب لهم مثلا قريبا مما هم فيه. يطلب القرآن الكريم من النبي - عليه السلام - وبين قومه الذين عبدوا الأصنام كما يعبدها المشركون زمن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حاور إبراهيم أباه وقومه فسألهم منذ البداية ماذا تعبدون ؟ قالوا نعبد أصناما ونبقى لها عاكفين نعظمها ونقدسها. وواصل إبراهيم الحوار هل تسمع هذه الأصنام دعاءكم حين تدعون ؟ هل ينفعونكم أو يضرونكم ؟ هل تجلب لكم الرزق والصحة إن عبدتموهم، وهل يضرونكم إن عصيتموهم. إن الاستفهام هنا يقرر الحجة العقلية ويوبخ هؤلاء الجاهلين، إذا لم يضروكم أو ينفعوكم فلم عبادتكم لهم ؟ وأجابوا باعتراف واضح بأن ما يعبدون من دون الله ليس إلا تقليدا. وقد اعترفوا أن هذه الأصنام لم تضرهم ولم تنفعهم لأنها لا تسمع ولا تبصر بل وجدوا آباءهم هكذا يعبدون أصنام فعبدوها.

ويحاورهم القرآن من خلال قصة إبراهيم : إن ما تعبدون هم عدو لى في الدنيا والآخرة وهنا يصل بنا الحوار القرآني إلى جوهر التحدي وإلى المقابلة العظمية بين الصفات التي هي عليها تلك الأصنام وبين صفات الله الخالق العظيم .

إن الله خلقني وهو الذي يرشدني إلى طريق الصواب لأنه يهدي كل مخلوق لما خلق له ، وهوالذي خلقني ويرزقني الطعام والشراب وهوالذي خلقني ويشفيني إذا أصابني مرض ويعافيني منه . وهوالذي خلقني ثم يميتني ثم يحييني يوم القيامة . والحساب والجزاء وهو الذي خلقني والذي أطمع وأرجو أن يغفر لي خطيئتي يوم القيامة. وفي هذه الآية الأخيرة درس للمسلم المؤمن ، فهي تحذر من فعل المعاصي والآثام دوما وطلب المغفرة من الله .

ويقول تعالى في سورة الأنبياء « أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون، لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ، أم اتخذوا من دونه آلهة قل هاتوا برهانكم هذا ذكر من معي وذكر من قبلي بل أكثرهم لايعلمون الحق فهم معرضون » ٢١ -٢٤.

والحوار القرآني للعقل البشري يترك له الباب مفتوحا ليفكر ويتدارك ويتدبر الأمور إنه يضع الحجة دامغة فمن له برهان على عدم وحدانيته فليأت

بها ولكنهم لن يأتوا بأي برهان لأن حقيقة الله واحدة ووجوده واحد .

لقد صنع الكافرون آلهة من تراب الأرض وصخرها فهل هي قادرة على أن تبعث الموتى من القبور ؟ بالطبع فهذا لايقبله عاقل ، لايقبل أن يقوم الجماد ببعث الأموات . وهل يصدق عاقل وجود أكثر من خالق لهذا الكون والوجود . إذا اجتمع إنسان وإنسان وهما مخلوقان ليصنعا شيئا يختلفان فكيف يصدق العقل أن إلهين يجتمعان ولايحدث نزاع بينهما ، لو كان فيهما آلهان لفسدتا وهذا عين المنطق وعين العقل فسبحان الله المنزه على أن يكون لله شريك في أفعاله وخلقه . إن الله لا يسأل عما يفعله ويقضيه في عباده من اعزاز وإذلال وهدى وإضلال وإسعاد وإشقاء لأنه الله المتعالى المالك للحقيقة ولو اعترض على الزعيم الإنسان بعض من خدمه وجنوده لاستنكر ذلك فكيف برب العالمين خالق الوجود والبشر ومسيّرهم ومدبر حياتهم ؟ إنه لايسأل عما يفعل لأنه الخالق بينما يسأل الناس عن أفعالهم لأنهم مخلوقون .

ويزيد القرآن في حواره لعقول المشركين توبيخه لهم إذ يكرر القول أم اتخذوا من دونه آلهة فإذا كنتم تعبدون أصنافا فهاتوا برهانكم وحجتكم العقلية والمنطقية التي تثبت ألوهية أحجار لاتسمع ولاتتكلم . إن حجتي وبرهاني ساطع فهذا القرآن فيه خير دليل على وحدانية ربي إنه خير دليل على أن من تبعني

جزاؤه الجنة ومن خالفني جزاؤه النار . إنه خير دليل وبرهان على وحدانية الله لأنه يتحدث عما فعل في الأقوام التي سبقتكم والتي ضلت فكان جزاؤها التدمير. ولكنكم لاتعرفون ماحوى القرآن من حكم ومواعظ ودروس فلذلك لن تميزوا بين الحق والباطل فأنتم معرضون عن تقبل البرهان والحجة العقلية المنطقية بسبب جهلكم بما في هذا الكتاب العظيم .

ويصل الحوار القرآني للعقل ذروته في سورة النمل إذ يقول سبحانه وتعالى: « أم من خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ماكان لكم أن تنبتوا شجرها أإله مع الله بل هم قوم يعدلون ، أم من جعل الأرض قرارا وجعل خلالها أنهارا وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزا أإله مع الله بل أكثرهم لايعلمون ، أم من يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أإله مع الله قليلا ماتذكرون ، أم من يهديكم في ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته أإله مع الله تعالى الله عما يشركون ، أم من يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض أإله مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين » ٦٠-٦٤ .

إن هذا الحوار المتسع الشامل لايدع عقلا إلا ويطوقه بالحجة البالغة والبرهان الساطع . ويمكن أن نرى التدرّج فيه الشكل التالي :

١) من خلق السموات والأرض ؟

٢) من أنزل من السماء ماء فأنبت به جنات وبساتين جميلة ؟

٣) من جعل الأرض قرارا وجعل فيها أنهارا وجبالا وجعل بين البحرين حاجزا ؟

٤) من يجيب المتضايق الحائر إذا دعاه ؟ من يكشف السوء والمريض ويجعل الناس خلفاء في الأرض ؟

٥) من يهدي البشر إلى السبل في ظلمات البر والبحر ؟

٦) من يرسل الرياح مبشرة بالمطر وبالخير ؟

٧) من يبدأ خلق الإنسان ثم يعيده ؟

٨) من يرزق الناس من المطر والزرع؟

كل هذه الأسئلة يطرحها حوار القرآن على العاقلين وعلى الجاهلين ،أفبعد كل هذه البراهين على وحدانيته تقولون مع الله إله .

ويكرر القرآن الكريم قوله تعالى أإله مع الله خمس مرات ليؤكد وحدانيته ويذكرهم بما يدّعون ورغم ذلك كله يتحداهم القرآن بقولة إن كانت دعواكم بأن هناك آلهة وهناك شريك لله فهاتوا برهانكم كما جئنا نحن بالبراهين الكثيرة إن كنتم صادقين في دعواكم هاتوا ولو ببرهان واحد صغير . ولكنكم عاجزون عن

ذلك لأن العقل والمنطق يقولان بوحدانية الخالق ، ومن ينكر هذه الوحدانية فإنه جاهل مخالف لنواميس المنطق والأمر الطبيعي في الوجود وهذا الكون .

مما تقدم ندرك أن القرآن الكريم الذي حاور ويحاور عقل الإنسان على الدوام إنما هو يفتح أمامه طريق النقاش الداخلي في نفسه حتى يصل إلى مرحلة التصارع بين التجهّل والتعقل وبين التخبط والتوازن ، ومن ثم يضع أمامه ماتتوق له فطرّته وأحاسيسه وقلبه وروحه ونفسه ليصل إلى حقيقة وحدانية الله المتنزهة عن الصفات البشرية .

لقد جاء الحوار القرآني للعقل ليعلمنا أن المراتب التي يتدرج بها العقل في سلّم المعرفة من المحسات الجزئية إلى الأفكار الكلية . وجاء يعلمنا أن العقل قادر على إدراك وجود الله بآثاره في مخلوقاته وإقامة الأدلة الصادقة على ذلك. وجاء الحوار يعلمنا أن الإنسان قادر بعقله على إدراك المنطقي وغير المنطقي من الأمور .

وما تركيز القرآن على الحوار العقلي إلا لأن العقل أقرب إلى موازنة الخطأ والصواب وأقرب إلي مفتاح الواعي لوحدانية الله .

ولئن كان العقل غير كاف وحده ، للوصول إلى حقيقة الإيمان بوحدانية

الله إلا أنه المفتاح الحقيقي للوعي الكلي الذي تشارك في صنعه النفس والوجدان والإحساس والضمير والقلب والروح وحتى الجسد . فمسألة الإيمان بالله وبوحدانيته مسألة وعي، والعقل مفتاحها الأول .

ولعلنا نتوقف هنا عند قوله تعالى وهو يتحدى المخلوقات ولاسيما الإنسان الذي يتميز عن غيره بعقله ومنطقه العقلي لندرك ما معنى الإيمان بوحدانيته سبحانه :

(ياأيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب، ماقدروا الله حق قدره إن الله لقوي عزيز) سورة الحج ٧٣ - ٧٤.

إذا إن كانوا يعبدون هذه الأصنام ويقتنعون بألوهيتها فليسألوا أنفسهم هل تستطيع خلق ذبابة وما أدراك ما الذبابة من الضعف والصغر ؟

هل يستطيعون هم أنفسهم إرجاع ما تسرقه الذبابة من مأكلهم ومشربهم ؟ فليعد الانسان إلى تحكيم العقل وإلا سيضحك من نفسه على هذا الجهل السخيف وعلى هذا الإعراض عن صحة العقل وسلامة الذوق والمنطق.

فليعد الانسان إلى الاعتراف بأن الله موجود، واحد لا شريك له منزه عن الصفات البشرية.

«قل هو الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفؤا أحد.»

صدق الله العظيم

الفصل الثاني

القرآن وحوار العقل ومصداقية الأنبياء والرسل

كما حاور القرآن الكريم العقل حول وجود الله سبحانه ووحدانيته فإنه حين يتعرض للحديث عن الأنبياء والرسل لا يفرض على العقل البشري تصديق الأنبياء تصديقا قسريا جبريا.

وهو في جميع الأحوال يوصل هذا العقل إلى القناعة والمنطق وإلى قانون الاعتراف بالحقائق دون قهر أو سلب للإرادة البشرية.

من الطبيعي جدا أن يظهر في كل مجتمع بل في كل أمة زعماء ومفكرون وفلاسفة وعلماء ومن الطبيعي جدا أن يتفاوت الناس في علومهم وثقافتهم، وهذه سنة الوجود والحياة الاجتماعية والعقلية. وطبيعي أن يقود الأمم زعماء وينظر لهم فلاسفة وحكماء بغض النظر عن طغيانهم أو خيرهم.

وضمن المقياس البشري فإن أفكاد هؤلاء وفلسفتهم تبقى أفكارا وفلسفة وضعية قد تفرض على الجماهير فرضا أو قد تشبع نزواتهم الدنيا وطموحاتهم الأرضية أو النفسية على أية حال فإن الأمم منذ أنزل آدم - عليه السلام - إلى الأرض كانت تشهد بروز شخصيات متميزة قد تؤثر في طبيعة تركيب العقل البشري ونفسيته وفلسفته إما سلبا أو إيجابا.

ولهذا فإن الله سبحانه أراد أن يصطفي من بنى البشر من يصحح مسار الخطأ البشري وطريق العبادة الانساني دون أن يكون التأثير يحمل وجهين

متناقضين بمعنى أن الله سبحانه أراد أن يختار رجالا يؤثرون إيجابا دون احتمال وجود الوجه الآخر.

•

كل الفلاسفة والمفكرين وحتى زعماء الأمم والشعوب يطرحون أفكارهم الوضعية هم بذاتهم دون أن يكلفوا من الله سبحانه ودون أن يوحي لهم بما هو ليس وضعيا ولا أرضيا ولذلك كان لا بد من اختيار أناس يطرحون أفكارا أخرى مغايرة، أفكارا غير وضعية لا تحتمل الخطأ البتة.

ولهذا أيضا بعث الرسل والأنبياء، والأنبياء المرسلون والأنبياء أولو العزم ولهذا بعث بعضهم لقبائلهم وبعضهم الآخر لأقوامهم لكن النبي محمدا - صلى الله عليه وسلم - بعث لكافة الناس ولكافة البشر في الأرض.

لقد حاور القرآن الكريم العقل البشري في كل ذلك، لماذا يبعث الله الرسل ؟ وماحاجة البشرية لهم ؟ ماهي مهمتهم، ولماذا هم بشر وليس غير ذلك ؟ ثم لماذا خصص الله سبحانه جميع الأنبياء لشعوبهم وأقوامهم بينما خصص الرسول محمد - صلى الله عليه وسلم - لكافة الأمم والشعوب ؟ ثم لماذا ختم الله النبوة بآخر الأنبياء وخاتمهم محمد - صلى الله عليه وسلم - ؟

كل هذه الأسئلة التي نطرحها أجاب عنها القرآن الكريم ضمن حوار عقلي منطقي واضح يعتمد على محاورة العقل والاقناع والتكرار حتى يصل العقل إلى الايمان النظيف الصحيح. وقد علمنا القرآن الكريم قبل أي شيء أن القاعدة في اختيار الأنبياء هي أعمالهم لا أقوالهم وأعظم هؤلاء هم الذين أرسلهم الله بنوره وهدايته وما جاء على لسانهم من الأقوال الحكيمة والمواعظ الخلقية والاجتماعية ولا يتحقق أثره إلا إذا كانت أعمالهم مظاهر لها.

ومن حكمته تعالى أن اختار الأنبياء بشرا كبقية البشر يأكلون وينامون، يعيشون ويتزوجون وينجبون ويموتون. هذا الاختيار الإلهي لم يأت عبثا إنما هو تدبير الخالق العظيم. فلو امتاز الأنبياء عن البشر لعبدهم الناس وأوصلوهم إلى مصاف الخالق أو الملائكة لكن حكمة الله قضت أن يكون الأنبياء بشرا حتى يخاطبوا البشر بلغتهم ويحاوروهم بعقولهم البشرية وليجعلوهم يقارنون بين طريق الفساد الذين هم عليه وبين طريق الأنبياء المستقيم.

وقد حاور القرآن العقل البشري في كون الأنبياء بشرا كبقية الناس في كثير من الآيات القرانية.

يقول تعالى في سورة إبراهيم : (ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لايعلمهم إلاّ الله جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا

أيديهم في أفواههم وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب (٩) قالت رسلهم أفي الله شك فاطر السموات والأرض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمّى قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين، (١٠) قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون) (١١)، يحاور القرآن الكريم عقول الذين يكفرون بالله وينكرون القرآن والنبي محمد - صلى الله عليه وسلم - ويستفتح حواره بالسؤال التذكيري ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم من قوم نوح وعاد وثمود فاعتبروا بما جرى لهم وما فعل الله بهم. لقد جاءتهم رسلهم بالبينات والدلالات على وحدانية الله وصمديته فلم يذعنوا للحق فأخذهم الله أخذ عزير مقتدر . لقد جاءتهم الرسل ولما حدثوهم عن الحق وطريق الايمان عضوا أيديهم غيظا وتعجبا وسخرية. ولما وضح الحق لهم لم يجدوا جوابا أو حجة يردون بها على الرسل فأحبطوا وضيّق عليهم فإذا بهم يقولون كفرنا.

ماذا قالت الرسل لهؤلاء الكفار: هل تشكون في الله وهو لا يحتمل الشك لكثرة الأدلة. فاطر السموات والأرض، إنه خالقها ومبدعها ومخترعها ومنشئها وموجدها بعد العدم إنه يدعوكم إلى الحكمة والعقل، يدعوكم إلى

عبادته وطاعته والإيمان بالرسل والكتب والملائكة واليوم الآخر ليغفر لكم من ذنوبكم.

لقد حاورهم الأنبياء وحاورتهم الرسل، فما كان جوابهم ؟

ردوا عليهم إن أنتم إلا بشر مثلنا. ولستم إلا مثلنا بالهيئة والصورة تأكلون مما نأكل وتشربون مما نشرب ولستم ملائكة فلا فضل لكم علينا فلم تخصون بالنبوة دوننا. ولو شاء الله أن يبعث إلى البشر رسلا لبعث من جنس أفضل إنكم تريدون أن تصدونا وتمنعونا عما كان يعبد آباؤنا فإذا كنتم تدعون النبوة هاتوا حجتكم القوية الواضحة على صحة دعواكم.

ويصل بنا القرآن الكريم إلى جوهر المسألة وجوهر الحوار العقلي، حيث يقول الأنبياء نعم نحن بشر مثلكم، لكن الله يمن على من يشاء من عباده بالهداية والايمان والتوفيق بطاعته ويصطفي للنبوة من يشاء من عباده لهذه المهمة العظيمة ويختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

وإذا كنا قد اصطفانا الله لمهمة هداية البشر فإنه سبحانه هو الذي يأذن لنا أن نأتيكم بحجة وبرهان. وما نحن إلا مبلغون لا نكذب عليكم ولا نخترع ما يبرهن على صحة ما نقوله لكم.

ومعجزة الحوار القرآني هنا تتجلى في أن الأنبياء والرسل بشر. وحتى تكون الحجة بالغة على الكافرين بعث الله الانبياء والرسل من جنس الناس. هم يسيرون في طريق الخير والعدل والمحبة وعدم الاشراك والاستقامة والكافرون يسيرون في طريق الشر والظلم والكره والاشراك بالله والاعوجاج عن كافة الطرق السليمة الموصلة إلى سعادتهم في الحياة الدنيا والآخرة.

ومن حق العقل البشري طالما أنه يمتاز بالتمحيص والمقازنة أن يرى نتائج الشر والخير والعدل والظلم والاشراك والايمان ويرى أيضا كيف كانت عاقبة الأمم السابقة التي ضلت الطريق وعاندت الرسل وكفرت بالحق وبطريق الصواب والمنطق.

وإذا كان الكافرون يحتجون على كون النبي بشرا فإن الأنبياء السابقين والذين عرفهم وعرف أخبارهم الناس جميعا كانوا بشرا ولم يكونوا ملائكة أو غير ذلك. وسنة الله جارية من أول مبدإ الخلق أنه لم يبعث إلا رسولا من بشر فهذه عادة مستمرة وسنة جارية منذ خلق أدم عليه السلام.

ويقول تعالى في سورة المومنون «ثم أنشأنا من بعدهم قرنا أخرين، فأرسلنا فيهم رسولا منهم أن اعبدوا الله مالكم من إله غيره أفلا تتقون، وقال

الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم في الحياة الدنيا ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون، ولئن أطعتم بشرا مثلكم إنكم إذا لخاسرون، أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون، هيهات هيهات لما توعدون، إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين، إن هو إلا رجل افترى على الله كذبا وما نحن له بمؤمنين، قال رب انصرني بما كذبون، قال عما قليل ليصبحن نادمين، فأخذتهم الصيحة بالحق فجعلناهم غثاء فبعدا للقوم الظالمين » ٣١ - ٤١ ففي هذه الآيات القرانية يوجه كتاب الله عز وجل الحوار الدائر هنا إلى الذين يكفرون بالله وينكرون رسالة النبي محمد - صلى الله عليه وسلم -.

وتعاد سيرة الجدل حول كون الرسل بشرا وكون الكافرين يرفضون هذه النبوة وتأتي حجة القرآن دامغة حين يبين أن الله سبحانه بعث لقوم عاد أو ثمود بعد أن أهلك قوم نوح نبيا منهم من قومهم وجنسهم يدعوهم ليتركوا عبادة الحجارة والأصنام ويعبدوا الله الواحد القهار الذي تدل عليه آيات الكون ومعجزاته لكنهم أبوا ورفضوا الوحدانية فقالوا حجتهم الدائمة إن هذا الرسول بشر مثلكم يأكل مثلكم ويشرب مثلكم فكيف تطيعونه ؟ فإن أطعتموه فأنتم خاسرون ويتابع القرآن الحديث عن حججهم. إن هذا النبي يعد بأن بعد الموت

حياة رغم أن الإنسان يموت ويصبح ترابا وعظاما نخرة. إن هذه الحياة هي حياتنا نموت ونحيا ولا نبعث في ما بعد الموت. وما هذا الرسول البشر إلا مدع ولن نكون له مؤمنين لكن الله سبحانه نصر النبي البشر وعاقبهم على كفرهم فأصبحوا هباء منثورا، في هذه الآيات الكريمة درس مهم يدور الحوار فيه في عدة مناح :

في المنحى الأول حوار بين الكافرين وملّتهم وأشياعهم

وفي المنحى الثاني حديث حول كون الرسول بشرا ومن ثم تفصيل ما جاء به هذا النبي ورفض الكفار له.

وفي المنحى الثالث حوار النبي مع الله سبحانه عن طريق الوحي

والنتيجة فالآيات تبيان لكل من سمع القرآن منذ أن سمعته قريش حتى تعتبر وإلى يوم الدين.

ويقول تعالى في سورة يس : «واضرب لهم مثلا أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون، إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون، قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شيء إن أنتم إلا تكذبون، قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون، وما علينا إلا البلاغ المبين، قالوا إنا تطيرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسنكم منا عذاب أليم، قالوا طائركم معكم أئن ذكرتم بل أنتم قوم مسرفون ١٣ - ١٩».

فيؤكد الحوار القرآني هنا أن أصحاب القرية التي بعث لها ثلاثة رسل من حواريي عيسى عليه السلام رفضوا تصديق دعوتهم إلى الصواب ودين الحق وكانت حجتهم أنهم بشر مثلهم فردوا على الكافرين بالمنطق والحجة حيث قالوا إن الله يعلم إنا إليكم مرسلون ولن نكذب عليكم وليس لنا مصلحة في الكذب عليكم وما نحن إلا مبلغون ما أمرنا به. وقد تطير الوثنيون من هذه الدعوة لأنها تخالف عبادة الأوثان وهددوا الرسل بالقتل، ولكن الرسل ردوا عليهم بالحجة والمنطق العقلي حيث قالوا إن تطيركم هو سبب عقائدكم الوثنية وسوء أعمالكم لابسبب ماندعوكم إليه من دين الوحدانية.

وقد ورد في القران الكريم وفي عدد كبير من الآيات الحديث عن حجة الكافرين بأن الأنبياء بشر. فقد جاءت في أكثر من عشر مواضع متفرقة ضمن سياق الحوار بين الكافرين والرسل. وإذا كان الحوار القرآني يؤكد إقناع البشر بأن الأنبياء والرسل يجب أن يكونوا بشرا فإنه أيضا يؤكد في حواراته الأخرى مهمة هؤلاء الأنبياء فهم منذرون، وهادون إلى طريق الله والسعادة الدنيوية والأخروية، لم تكن مهمة الأنبياء البحث عن السلطة أو الزعامة والغنى، وقد حاور القرآن الكريم العقول البشرية في كل ذلك وبين أن الأنبياء بشر اصطفاهم الله. وطالما أنهم كذلك فقد يتعرضون للإهانة والعذاب من قبل أقوامهم

ويتعرضون للموت كما هو حال بقية ما خلق الله.

يقول تعالى في سورة الأعرف : «أو لم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة إن هو إلا نذير مبين، أو لم ينظروا في ملكوت السّموات والأرض وما خلق الله من شيء وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم فبأي حديث بعده يؤمنون، من يضلل الله فلا هادي له ويذرهم في طغيانهم يعمهون، يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمها عند ربي لايجليها لوقتها إلا هو ثقلت في السموات والأرض لاتأتيكم إلا بغتة يسألونك كأنك حفي عنها قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لايعلمون، قل لا أملك لنفسي نفعا ولاضرا إلا ماشاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون» ١٨٤ - ١٨٨ في هذه الآيات الكريمة يحاور القرآن الكريم عقول الذين يشكون في الخالق ونبيّه الكريم فيتحداهم في فكرهم وعقولهم ويدعوهم للتفكر في هذا الزعم الذي يزعمون.

أو لم يتفكروا أن هذا النبي ليس مجنونا، إنما هو نذير بعثه الله لينذرهم عاقبة أعمالهم ويدعوهم إلى النجاة ؟ فالرد القرآني على زعمهم جاء قويا متحديا لأن تقوى الله ودعوة الناس إلى الرشاد وطريق الخير ليست جنونا إنما الجنون هو الذي يمسّ من خالف المنطق والعقل وركب هواه.

وليثبت الرسول صحة ما يدعوهم إليه من الايمان فقد خاطب عقولهم لتنظر في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من المخلوقات والأنعام التى لا يمكن حصرها ليدلهم على كمال قدرة صانعها ووحدة مبدعها وعظم شأن مالكها. ثم يحاورهم ليتفكروا فى موتهم أهم مخلدون أم أن الموت يعاجلهم كبقية البشر والمخلوقات ؟ عجبا من هؤلاء الكفار الذين بيّنّا لهم فى القرآن منطق الحق والعقل والمنطق الصحيح، عجبا منهم إن لم يؤمنوا بهذا الكتاب فبأي كتاب بعده يؤمنون ؟

فإذا نحن بيّنّا لهم ملكوت السماء والأرض وبينا لهم ما خلق الله ورفضوا الايمان فبما عساهم ينتفعون، سيبقون ضالين عن جادة الصواب والايمان لأنهم لا عقل لهم إن لم ينتفعوا بهذا الحوار.

وليزيدوا حسب ظنهم تعجيز النبي النذير يسألونه عن يوم القيامة، ولو أجابهم بأنه يعرف فإن صفة البشرية والنذير تنتفي عنه، ولذلك كان المنطق العقلي البشري هو صفة دائمة في الأنبياء لقد حاورهم في خلق السموات والأرض وعندما يسألونه عن القيامة يجيبهم الرسول بمنطق النذير، إن علم الساعة عند ربي استأثر بها فلم يطلع عليها نبيا مرسلا ولا ملكا مقربا، ولا يظهرها في وقتها المحدد لها إلا الله سبحانه، لقد خفي علمها على أهل السموات والأرض وكل ما خفي علمه فهو ثقيل على الفؤاد. بهذا المنطق النبوي

البشري يجيبهم رسول الله عن الساعة وقيامها إنه نذير بشير ولايعرف عنها إلا ما تحدث به عن علم الله بها، وطالما أنه بشر فإنه لايتحمل معرفة هولها ولذلك تبقى سرا من أسرار ذات الله العظيم. ونلاحظ المنطق في الحوار العقلي على أروع صورة يمكن أن يتخيلها الانسان العاقل المؤمن. فسبب إخفاء علم الساعة ووقت قيامها على العباد ليكونوا دائما على خوف وحذر منها لأنهم إذا لم يعرفوا متى يكون ذلك الوقت كانوا على وجل وخوف منها فيكون ذلك أعقل لهم على الطاعة والتوبة، ولو عرفوا متى تقوم ووجدوا وقتها قريبا لشلت حياتهم عن إعمار الكون والدنيا ولتعطلت حركة الوجود ولانتفت مسألة كون الدنيا دار امتحان. ولو عرفوا وقتها ووجدوه بعيدا لأشاحوا وجوههم عن التوبة والاستقامة ولم يعودوا يفكرون باستقامة أو دين. وطالما أن الرسول - عليه الصلاة والسلام - بشير ونذير فإنه ومن خلال حوار عقلي منطقي يقول لهم بعد أن علّمه الله ماذا يقول عن طريق وحيه وقرآنه. إنني نذير لكم ولا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا وهذا إظهار لعبودية الله سبحانه والتبرّيُ من ادعاء العلم بالغيب إلا ما يمنحه الله من علمه عن طريق وحيه وهديه، ويكون منه كرم وفضل فليهمني إياه ويوفقني إليه.

ويستمر الرسول النذير ليحاورهم بمنطق الانسان الذي يريد لهم الخير والنعيم لو كان فيكم عقول ناضجة لنظرتم إلي فأنا بشر مثلكم ولو كنت أعرف

الغيب لاستكثرت من الخير. ولو كنت عرف الغيب لما مسّني الفقر والتعب والمرض والجوع. يا أصحاب العقول فلتفكروا ولتصبروا إنما أنا عبد مرسل للتخويف من الكفر والمعاصي وللتبشير بالجنة والنعيم المقيم للمتقين المطيعين، الذين يؤمنون بالله حق إيمان. ويتبعون أحسن القول لأن القرآن أحسن القول لأنه منزل من رب العالمين، ويبين بالمنطق طريق الحياة والآخرة.

ويقول تعالى في سورة هود : (فلعلك تارك بعض ما يوحي إليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك إنما أنت نذير والله على كل شيء وكيل. أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين، فإلّم يستجيبوا لكم فأعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون) ١٢ - ١٤.

لقد جاء الحوار على الوتيرة نفسها فالكفار يريدون أن يتحدوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ويعجزه. فقد قالوا له إن كنت صادقا في قولك بأنك رسول الله الذي تصفه بالقدرة على كل شيء وأنت عزيز عنده مع أنك فقير فهلا أنزل عليك ما تستغني به أنت وأصحابك وهلا أنزل عليك ملكا من السماء يشهد لكن بالرسالة والنبوة. غير أن الله سبحنه يقول للنبي ويوصيه إنما أنت نذير

مقصور على الرسالة، تنذر بالعقاب من عصى الله وتبشر بالثواب من آمن بك. والله هو الحافظ على أعمالهم وأقوالهم فيجازيهم عليها يوم القيامة إن خيرا فخير وإن شرا فشر لقد قالوا ذلك لأن قلوبهم مغلقة ولذلك أيضا قالوا إن الرسول - صلى الله عليه وسلم - افترى وكذب لكن القرآن يحاورهم متحديا إن كنتم تتحدون فأتوا بعشر سور مثله وقد تحداهم القرآن مرارا أن يأتوا بسورة واحدة أو سور مثل ما في القرآن وتحداهم أن يجمعوا قواهم وكل من يعرفونهم من الفصحاء والبلغاء كي يأتوا بمثل ما في القرآن المجيد لكنهم لن يستطيعوا لأنهم كاذبون. وإن لم يستجيبوا لدعوة الحق فأعلم يا محمد ويا مؤمنون أن هذا القرآن أنزل من قبل الله وأن الله واحد لا شريك له فأعرضوا عن الكفر وأسلموا وأثبتوا على الايمان والاسلام.

ويقول تعالى في سورة هود (ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه إني لكم نذير مبين، أن لا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم، فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشرا مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأي وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين، قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون، ويا قوم لا أسألكم عليه مالا إن أجري إلا على الله وما أنا بطارد الذين

آمنوا إنهم ملاقو ربهم ولكني أراكم قوما تجهلون، وياقوم من ينصرني من الله إن طردتم أفلا تذكرون، ولا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إني ملك ولا أقول للذين تزدري أعينهم لن يؤتيهم الله خيرا الله أعلم بما في أنفسهم إني إذا لمن الظالمين قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين، قال إنما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين، ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم وإليه ترجعون) ٢٥ - ٣٤

في هذه الآيات الكريمة يدور الحوار القرآني بين النبي نوح عليه السلام وقومه، ويأخذ أسلوبا تفصيليا وهذا عائد إلى طبيعة الجدال الذي دار بينه وبينهم من أجل اقناعهم بأنه نذير ينذرهم ويعلمهم ويبين لهم كثيرا من الأمور التي يتساءلون بشأنها. ولعل طول هذا الحوار يعلمنا درسا في صبر الأنبياء في طريق الدعوة للوحدانية، وطالما أن النبي نذير فإن مهمته هي الحوار مع الضالين، حتى يصل بهم إلى طريق الخلاص الروحي والنفسي والعقلي.

يبدأ نوح جداله مع قومه بالحديث لهم عن مهمته وهي الابتعاد عن الشرك. وواضح من الآية الكريمة ٢٦ أن أول ما تحدثت به عدم الاشراك بالله لأنه يخاف عليهم من العذاب إن هم أشركوا. وقد كان جوابهم كما هو شأن

طبيعة البشر الكافرين ما نراك إلا بشرا مثلنا، وهذا يعيدنا إلى الحديث عن كون الأنبياء بشرا وهذه سمتهم جميعا صلوات الله عليهم. إذا هم يريدون أن يكون هذا النبي صاحب سمة وميزة مختلفة عن سمة البشر. ويحتجون أن الذين اتبعوه هم الفقراء والصنّاع البسطاء. وبالطبع فإن حجتهم واهية فليس اتباع الفقراء لدين التوحيد ما يعيبه إنما الذى يعيبهم هم هو أن النبي نوحا جاء لهم بالبراهين والآيات على وحدانية الله ولم يصدقوا ولم يمتثلوا أوامر الله عز وجل. والشرف والرفعة ليستا بالمال والسلطان إنما بالايمان والتقوى.

ويرد عليهم النبي نوح بحوار عقلي منطقي لا يمكن للعقل إلا أن يقبله لو كنت على حجة وبرهان من ربي وأتاني رحمة من فضله ونبوة هدفها هدايتكم وأحجبت عنكم أنجبركم على تقبلها ؟ وأنتم كارهون لها. يا قوم لا أسألكم على هدايتكم مالا وأجري على الله انني نذير لكم ولا أريد جاها ولا مالا وسلطانا، ولن أطرد الذين آمنوا لأنهم طرقوا باب رحمة الله ولست سوى مبلغ ونذير وإني إ ن طردتهم فمن ينجيني من عقاب ربي أفلا تذكرون ؟

ويتابع الحوار طريقه حيث يبين النبي نوح عليه السلام أنه نذير لهم وهو لايملك خزائن رزق الله وأنعامه وافضاله وهذا رد لقولهم (ومانرى لكم علينا

من فضل) ثم يقول إنه لا يعلم الغيب وهذه صفة الأنبياء كونهم من البشر ويبين أنه بشر وليس ملكا وأن الله سبحانه وعد المؤمنين خيرا ولست أعلم ما في نفوسهم لأني لا أدعي علم الغيب فأكون من الظالمين.

لقد حاورهم نوح وجادلهم ليصل بهم إلى طريق الصواب والايمان لكنهم استكثروا هذا الحوار ووجدوا أنفسهم يحاصرون فقالوا له إئتنا بما تعدنا إن كنت صادقا، أين العذاب الذي تنذرنا به إن كان فعلا هناك عذاب. ويجيبهم إنما يأتيكم الله بالعذاب وأمره إلى الله تعالى وليس إليّ وإذا شاء إهلاككم فإن أحدا لا يعجزه ولن تكونوا ناجين من العذاب إذا أراد الله عذابكم.

ومع أني منذر لكم لاينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم ولن ينفعكم إنذاري وتخويفي إياكم عقوبته ونزول الغذاب بكم لأنكم لاتقبلون نصحا إن كان يريد أن يضلكم أو يهديكم فالأمر راجع له لأنه الخالق والمدير لهذا الكون والوجود، ومن خلال الحوار العقلي في القرآن الكريم والموجودفي هذه الآيات الكريمة نستطيع أن نرى تكاملا في الرؤية في المقدمة وجوهر الحوار والنتيجة.

١ - نوح عليه السلام نذير إلى قومه يطلب منهم عدم الاشراك بالله ويخاف عليهم من عذاب أليم.

٢ - قوم نوح يرفضون دعوته بحجة أنه بشر مثلهم وإن الذين اتبعوه هم أراذل الناس وأفقرهم.

٣ - يرد عليهم نوح عليه السلام، إذا كان الله أنعم علي بالايمان أأجبركم حتى تكونوا مؤمنين.

٤ - نوح يبرهن على أنه يريد منفعتهم ولا يريد منهم شيئا لا مالا ولا أجرا وهو لن يتخلى عن الذين آمنوا معه بالله ولو كانوا من أضعف الناس وأفقرهم.

٥ - نوح عليه السلام لايعدهم بخزائن الأرض لأنه لايملكها وهو لايعلم الغيب وهو بشر والله وحده الذي يجزي على العمل الخير والعمل الشرير.

٦ - حصارهم من قبل نوح عليه السلام حتى أعجزوا فطلبوا منه أن يريهم عذاب ربه.

٧ - بيان نوح عليه السلام لهم أن العذاب ليس من عنده بل من عند الله ولن يعجز الله أن يعذبهم ولن ينفعهم نصحه إذا أراد الله لهم أن يعذبوا وهذا عائد إلى علم الله سبحانه.

ويقول تعالى في سورة الملك : «قل هو الذي ذرأكم في الأرض وإليه تحشرون، ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين، قل إنما العلم عند الله أنا نذير مبين، فلما رأوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا وقيل هذا الذي كنتم

به تدعون، قل أرأيتم إن أهلكني الله ومن معي أو رحمنا فمن يجير الكافرين عذاب أليم. قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا فستعلمون من هو في ضلال مبين قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورا فمن يأتيكم بماء معين » ٢٤ – ٣٠ لقد توقفنا عند الآية ٢٤ والآيتين ٢٩ و ٣٠ فيما سبق حيث كان سياق الحديث يدور حول كون النبي بشرا وليس ملاكا أو غيره.

وفي سورة الملك التي تعتبر من أكثر سور القرآن الكريم تضمينا للحوار القرآني نجد أن مهمة النبي أي نبي هو إنذار الكافرين وتنبيههم حتى يصحوا من غفلتهم ففي الآية ٢٥. يحتج الكافرون ويسألون عن وعد العذاب الذي أنذرهم به الرسول – صلى الله عليه وسلم –. ويجيبهم جواب البشير النذير القاصر عن الاحاطة بعلم الله إنما العلم عند الله إنما أنا نذير مبين وليست مهمتي معرفة أسرار الغيب وما يريد الله ومال لايريد.

وكون النبي أي نبي نذير للناس ومهمته تنبيههم ليصحوا ويصحّحوا مسار حياتهم فإن مهمته التي كلفه الله بها هي مهمة بلا مقابل سوى إرشاد الناس إلى عبادة الله الواحد وعدم الاشراك به. وقد بين القرآن الكريم ومن خلال محاورة العقل وإقناعه بالمنطق. والبشر كل البشر يتساءلون عقليا هل

يقدم الناس لبعضهم الخدمات دون أجر ؟ بالطبع فإن العلاقات البشرية في مستواها الدنيوي تقوم على تبادل الأعمال والأجر عليها، ولكن الأنبياء والرسل كلّفوا من قبل الله سبحانه أن ينقذوا البشر من الضلال والمهالك دون أن يطلبوا منهم جزءا على أعمالهم، فهم يعرفون أن مهمتهم الالهية هي إرشاد الناس والتعلق برضاء الله والآخرة فهي بالنسبة لهم والمؤمنين الملاذ الحقيقي لهم وليس دار الدنيا الفانية. ولو قسنا المسألة بالميزان الدنيوي لوجد العقل نفسه عاجزا عن التفسير إلا عن طريق واحد هو الإيمان اليقيني بأن الأنبياء والرسل ماهم إلا مبلغون مكلفون من قبل خالق الكون والناس ومدبر شؤونهم وباعث الأنبياء لهم ليهتدوا إلى طريق الخير والسعادة والفوز بالدنيا والدين والآخرة، ورحمة الله ورضاه عنهم.

يقول تعالى في سورة يونس (واتل عليهم نبأ نوح إذ قال لقومه يا قوم إن كان كبر عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لايكن أمركم عليكم غمة ثم أقضوا إلي ولاتنظرون ٧١ – فإن توليتم فما سألتكم من أجر إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين ٧٢.

ففي الآية ٧٢ يرد القرآن الكريم على الكافرين بلسان نوح إن رفضتم أن تستقيموا ولاتشركوا بالله فلا تضرونني ولاتنفعونني فإن أجري على الله لم أسألكم على دعوتي لكم أجرا ولا ملكا ولا سلطانا ولا جاها وقد أمرت من قبل ربي أن أكون مسلما له قلبي ووجهي ولا أشرك به أحدا.

وفي سورة هود يقول تعالى (وإلى عاد أخاهم هودا قال ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إن أنتم إلا مفترون، ياقوم لا أسألكم عليه أجرا إن أجري إلاّ على الذي فطرني أفلا تعقلون، وياقوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قوة إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين) .٥٠ – ٥٢

فهود عليه السلام حاور قومه حوار العقل فلم يطلب منهم إلا ماهو في صالحهم وهو عبادة الله وحده وعدم الاشراك به وعدم الافتراء والكذب. وبين الحوار أن هودا عليه السلام لم يطلب منهم أجرا على دعوته لتخليصهم مما هم فيه من ضلال. وإنه كسائر الأنبياء لايطمع إلا برضا الله وأجره الحسنات والنعيم عند الله الذي فطره وخلقه، إذا فعليهم أن يعقلوا ويدركوا أن من لايطلب أجرا على دعوته للهداية والخلاص من الضلال هو نبي نذير مخلص لنبوّته ولخالقه. ومنطق الحوار لايقطع على الضالين الطريق فرحمة الله واسعة وعنده رزق السموات والأرض. ياقوم استغفروا وتوبوا إلى الله تروا السماء

وقد أمدتكم بالمطر والغيث وتروا أنكم ازددتم قوة إلى ما أنتم فيه من قوة. فما رأيكم.. أدعوكم إلى الخير ولا أريد أجرا إن أجري على الله أدعوكم إلى الخير وعبادة الله الواحد الأحد وإن اهتديتم فإن فضل الله واسع وسيمدكم برزقه وقوته. وإن تتولوا ولاتقبلوا هذه الدعوة فإنكم تتولون مجرمين ضالين وجزاؤكم عذاب الله لكم في الدنيا والآخرة.

وفي سورة الشعراء يقول تعالى: «كذبت ثمود المرسلين، إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون، إني لكم رسول أمين، فاتقوا الله وأطيعون، وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين» ١٤١ - ١٤٥

ويقول تعالى في السورة نفسها، «كذبت قوم لوط المرسلين. إذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون. إني لكم رسول أمين. فاتقوا الله وأطيعون، وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين» .١٦٠ - ١٦٤

وفي السورة نفسها يقول تعالى: «كذب أصحاب الأيكة المرسلين، إذ قال لهم شعيب ألا تتقون إني لكم رسول أمين. فاتقوا الله وأطيعون، وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين» ١٧٦ - ١٨٠.

فهذه الآيات وغيرها من الآيات الموجودة في القرآن المجيد توضح ومن خلال حوار عقلي واضح أن الأنبياء جميعا لم تكن غايتهم دنيوية قطعا ولو كانوا يطلبون الأجر لانتفت عنهم صفة النبوة ولما اختارهم الله لتبليغ رسالاته.

ويخبرنا القرآن الكريم في مجالات عدة عن الأنبياء فهو خير صادق يتحدث عنهم حين يبين لنا دوما أن الأنبياء عاشوا وماتوا فقراء كونهم لايريدون من متاع الدنيا شيئا إنهم يريدون فقط تبليغ الرسالة وهداية الضالين إلى طريق السعادة في الدنيا والآخرة.

الفصل الثالث

حوار القرآن في خلق السماوات والأرض وما بينهما

حوار القران للعقل البشري في خلق الكون والانسان حوار واسع متشعب الجوانب وطالما أن ما يحيط بالانسان من سماء وأرض وما بينهما يحتاج لسبرفي أعماق التفكير فإن القرآن الكريم ركز بشكل دقيق على دعوة العقل وحواره ليتفحص هذا الخلق تفحصا دقيقا ليصل في النهاية إلى الايمان الراسخ الذي لاتشكيك فيه ولا ظن.

العقل البشري مخلوق لايستهان بقيمته ولايستهان بعملياته التفكيرية الواسعة والعميقة ولما جاء القرآن الكريم كتابا فيه كل جواب على كل تساؤل فإن حواره المستمر الذي لا يتوقف يظل بالقرب من عقل الانسان ليهديه إلى الحقائق التي يجهلها البشر من دون اللجوء إلى العلم والتعقل والتفكر التي هي جميعها من خصائص العقل.

من هنا كان الحوار أولا للتفكر في خلق السموات والأرض وثانيا في خلق هذا الإنسان العجيب في تركيبه النفسي والجسدي والروحي والعقلي.

إذا فمحور الحوار القرآني للعقل يتركز على هذين الأمرين العظيمين، خلق الكون، خلق الانسان، خلق الكون بما فيه من سماء بل سموات ونجوم وكواكب وشمس وقمر وسحب وأمطار وبرق ورعد، وبما فيه من أرض وجبال وبحار ومحيطات وأنهار وأتربه وأشجار وزلازل وبراكين ومعادن.

خلق الإنسان بما فيه من نشأته وهرمه وجسمه وعقله وروحه ودماغه وأعضائه وحركته وسكونه وكلامه إلى آخر ما هنالك من أجزاء تدخل في تركيبة خلقه.

كل هذه الأشياء تحتاج للحوار القرآني للعقل، وهي بطبيعتها ليست بسيطة بل تحتاج لآفاق واسعة من التحليل والحسابات والمراجعات والاكتشاف المستمر والاستطلاع الدائم والجهود الواسعة المتواصلة.

ويتلازم التفكير العقلي بالحواس فهذه تخدمه من خلال البصر والسمع والشم والذوق واللمس والشعور الداخلي العجيب وهو يخدمها حيث يحلل الظواهر ويدفع بها إليها حتى يشترك الجميع في التبصر والتعقل. إن القرآن الكريم يحاور العقل لأنه الأساس في عملية القناعة والاقناع، وهو المحور الذي تدور حوله كافة المهمات الجسدية التي غايتها الوصول إلى القناعة وليس إلى الفوضى والضياع العبثي والعدمي.

وإذا كان القرآن الكريم يحاور العقل فإن الوصول به إلى الإيمان بوحدانية الخالق هي غاية الغايات. وآياته تعالى مكشوفة لمن يريدها ويستقيم إلى مغزاها. فحتى العيان لايكفي لاقناع العقل إذا كان صاحبه قد صرفه عن

سبيل الإقناع لأنه يتهم بصره وسمعه فيما رأى بعينيه وسمع بأذنيه. وكل شيء في الأرض والسماء والنفس كاف لمن جرد عقله من أساليب الإنكار والاصرار.

من هنا نعود إلى حوار القرآن، إنه يهدي ولايظلم، يفتح الآفاق ولايغلقها يدعو القرآن الكريم العقل البشري من خلال حواره معه إلى التفكر في خلق السموات والأرض. ولا نجد في آياته الكريمة أي نوع من القسر الإلهي والقمع الجبروتي، والعقل بطبيعته ليس هو الذي يقبل القسر والقمع. لقد خلق الله الإنسان ودبر شؤونه وركب فيه العقل كي يكون أداة ووسيلة للوصول إلى الهدف النهائي وهو الايمان بوحدانية الله.

يقول تعالى في سورة ق : « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من خروج، والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج، تبصرة وذكرى لكل عبد منيب، ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد، والنخل باسقات لها طلع نضيد، زرقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج) ٦ - ١١ فإذا كان الكافرون لايؤمنون بالله فإنني أدعوهم للتبصر والتفكر. هنا يحاور القرآن عقل الانسان قبل أن يوصله إلى طريق الايمان. فهو يريده أن يتدبر ويتفكر في هذا الخلق العظيم.

يأخذ الحوار صيغة التساؤل الاستنكاري ومن ثم الدعوة للتفكر.

أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم نظرة تفكر واعتبار. إن القادر على إيجادها قادر على الاعادة. لقد رفعناها بلا عمد وزيناها بالنجوم ألا ينظرون إليها فهي سليمة من العروج والعيوب، لاصدع فيها ولافتق ولا خلل.

أفلا ينظرون إلى الأرض كيف بسطناها وفرشناها وثبتنا فيها ثوابت من الجبال لئلا تميل بأهلها وتضطرب. أفلا ينظرون كيف أنبتنا فيها من كل صنف من أصناف النبات الجميل والمشرق النضير ؟

إنا جعلنا ذلك كله وخلقناه تبصرة ليدل على كمال قدرته. وهي تذكرة لكل من يحب الرجوع إلى الله خائفا متذللا لله تعالى. إن في السموات والأرض آيات وعلامات مستمرة منصوبة في مقابلة البصائر، وآيات متجددة مذكرة الانسان عندما ينسى خلق الله ويغفل عنه.

ألم يروا أنا نزلنا من السماء ماء كثير الخير والبركة فيه حياة لكل شيء ألم ينظروا كيف أنبتنا بمطر السماء جنات وحدائق وبساتين وأنبتنا فيها نباتا يحصدونه ليقتاتوا بحبوبه من قمح وشعير وذرة وغيرها.

ألم ينظروا إلى هذا النخل الطويل المنتظم وإلى ثمره الذي يأكلون ؟ ألم يروا أن الزرع من حبوب ونخيل وأشجار هو رزق للبشر، ألم يروا كيف تنزل المطر فنحيي به أي بلد ميت. وهل تسكن أرض خالية من الماء ؟

كل ذلك ليذكر عقل الانسان أن الله القادر على خلق السموات والأرض وما بينهما قادر على إعادة البشر بعد موتهم إلى ماكانوا عليه وكما يريد لهم الله.

إن هذا الحوار بل هذا النداء للتفكر والتبصر هو دعوة لطريق الايمان والاقتناع.

ويقول تعالى في سورة الملك : «تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير، الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور، الذي خلق سبع سموات طباقا ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور، ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين) ١ - ٥.

ففي الآية الثالثة يحاور القرآن العقل البشري ويدعوه للنظر في خلق الله الواسع المتسع يسأله هل يرى أي خلل في هذا الخلق. إن كان هناك خلل فلينظر. وليمد البصر مرة بعد مرة وليفتش بكل ما أوتي من حدة الملاحظة، سيرى أن البصر سيعود ذليلا خاسئا ومقصرا عن إدراك ما خلق الله. فلينظر إلى السماء الدنيا وهي واحدة من سبع سموات لقد زيناها بنجوم وجعلناها رجوما تقذف على الشياطين الذين يحاولون استراق أخبار السماء. فسبحان الله الذي بيده كل شيء وهو على كل شيء قادر ويقول تعالى في سورة الأنبياء

(أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون، وجعلنا في الأرض رواسي أن تميد بهم وجعلنا فيها فجاجا سبلا لعلهم يهتدون، وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون، وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل في فلك يسبحون)

٣٠ - ٣٣ يحاور القرآن الكريم العقل البشري ولاسيما المتطور المتقدم في علومه. يتساءل القرآن ويدعو العقول التي كفر أصحابها ولايؤمنون بوحدانية الله، أو لم ير الذين كفروا، أو لم يروا رؤية البصيرة والعقل الصحيح الناضج. أولم يتفكروا ويروا بكل ما يملكون من عقول وأحاسيس ووعي أن هذه الأرض التي يعيشون عليها والسماء التي من فوقهم بما فيها من نجوم وكواكب كانتا جزءا واحدا ثم فصلناهما عن بعضهما لتكون الحياة على الأرض دون سواها من كواكب.

أو لم تر هذه العقول أنه بعد فصلهما عن بعضهما أرسلنا الماء على الأرض لتحيا. وهل يحيا شيء بدون ماء ؟ لو نظرنا بشكل علمي صحيح إلى فصل الأرض عن بقية المجموعات الشمسية ومافي هذا الكون من كواكب وإيجاد الماء مباشرة بعد الخلق لرأينا أن العقل البشري عاجز تماما عن تصور هذا الترتيب دون أن يعيد الأمور للخالق العظيم. إن حوار القرآن يدخل العقل البشري في واحدة من أخطر العمليات الكونية التي راح كافة العلماء يبحثون

فيها وظلوا يختلفون بين نظريتين فى تشكل هذا الكون ولو عادوا إلى القرآن الكريم لاستراحوا وأراحوا. فالقرآن يجيبهم عن أعظم تساؤلاتهم وأدقها وكل ذلك من أجل ماذا ؟ أمن أجل الجحود والابتعاد عن طريق الله !

إن إعجاز القرآن العلمي في هذه الآية وحدها يكفي لكي يؤمن الانسان ويعترف بأن لهذا الكون خالقا مدبرا وأنه لم يصنع بالصدفة ولم يأت عبثا. إنه القرآن الذي يحاور العقل ليقول للناس أفلا تؤمنون بعد هذا كله ؟ لقد جعلنا من الماء كل شيء حي، أفي ذلك شك ومن يقل غير ذلك فليأت ببرهانه، ولكن هذه البديهية التي يعترف ببداهتها كل الخلق تجعلنا نفكر طويلا وطويلا كيف كان خلق الماء يتبع فصل السماء عن الأرض، ولأن الله سبحانه يريد أن يحيي الأرض ويجعل فيها خلقا من البشر والحيوان والنبات أنزل الماء الأول بقدرته وعلمه، إن الاشارة القرآنية إلى عملية الفتق للكتلة الفريدة الأولى التي كانت عناصرها في البداية ملتحمة هي دليل من آلاف الأدلة التي تخاطب العقل البشري وتحاوره وتحاوره حتى تدله على طريق الاعتراف الحر بالله والايمان به.

وقوله تعالى : «وجعلنا من الماء كل شيء حي»، ليس هناك شك في مفهوم المصدر فالعبارة يمكن أن تعني أن كل شيء مصدره الماء كمادة جوهرية

أو أن أصل كل شيء حي هو الماء ألم ينظر الانسان ويفكر أن هذين المعنيين يتفقان تماما مع العلم. فالثابت بالتحديد أن أصل الحياة مائي وأن الماء هو العنصر الأول المكون لكل خلية حية فلا حياة ممكنة بغير ماء وإذا ما حاور العقل البشري نفسه بامكانية الحياة على الكواكب فإن أول سؤال يطرح هو أيحتوي هذا الكوكب أو ذاك على كمية كافية للحياة عليه ثم ألم ينظروا إلى هذه الجبال التي جعلناها رواسي تستقر بها حركة الأرض كم من أطنان الأتربة والصخور تتماسك لتشكل هذه الجبال ؟ ماذا لو أزيلت جبال هيملايا من على وجه الأرض وتناثرت في الفضاء ماذا يمكن أن يحدث لميزان الأرض وتوازنها ؟ ولينظروا إلى الينابيع التي تخرج عذبة الماء غزيرة متدفقة. كم تتصور أيها العقل لو أن هذه الجبال العالية أزيلت فمن أين تأتي الثلوج ثم من أين تخرج الينابيع لولا تلك الثلوج ولولا الارتفاعات العالية في الجبال.

ثم يحاور القرآن الكريم العقل البشري ويدخله في طريق العلم الحقيقي الموصل إلى الإيمان وجعلنا السماء سقفا محفوظا. من ينكر ذلك فإنه مخالف للعقل والمنطق.

فالله سبحانه جعل السماء سقفا للأرض والجو المحيط بها. إنها سقف محفوظ من قبل رب العالمين والنظرية العلمية تقول إن تباعد الأجرام عن

بعضها كالكواكب والنجوم المليئة في السماء هو الذي يحفظها من أن تتصادم فهناك الجاذبية وهناك القوة المركزية الطاردة وهذا التوازن هو الذي يجعل السماء بما فيها محفوظة وحفظها هو من رب العالمين فليهتد الانسان وليهتد العقل إلى أن الله هو المحافظ على توازن الكون واستقراره. وأخيرا فلينظر العقل إلى خلق الليل والنهار والشمس والقمر أليس خلقها جميعا يثير شهية العقل كي يبحث، كل في حوار يسير بانتظام وبدقة متناهية وأي خطأ يقع يتدمر الكون وتفنى الكائنات فمن رتب هذا الكون ؟ ومن جعله ينتظم بهذا الشكل الدقيق ؟ أهو عامل الصدفة، وأي قانون هذا الذي يسمونه الصدفة ؟ أليس خالق الكون هو الذي يدبره ويرتبه وينظمه، إن كل ذلك الحوار هو من أجل شيء واحد هو الايمان بالله سبحانه. الايمان بالخالق العظيم وسعادة النفس والعقل والروح سعادة في الدنيا والآخرة.

ويقول تعالى في سورة يونس : «قل انظروا ماذا في السموات والأرض وماتغني الآيات والنذر عن قوم لايؤمنون ١٠١ فهل ينظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم. قل فانتظروا إني معكم من المنتظرين» ١٠٢

ففي هذا الحوار القرآني لا لجوء إلى التهديد والانذار إلا بعد دعوة العقل للتفكر. والعقل هذا مرتبط بالإيمان. فالذي يطلب منه أن يكون عاقلا مفكرا

لاشك أنه سيصل إلى منطق الايمان بالله وبوحدانيته وقدرته ورحمته.

لقد كان هكذا خطاب النبي - صلى الله عليه وسلم - للكفار وهكذا يكون خطاب كل مسلم مؤمن للذين الحدوا وانحرفوا عن طريق الله، فالخطاب القرآني يدعو إلى النظر والتدبر والتفكر في خلق الله سبحانه للسموات والأرض وما بينهما، لينظروا إلى العبر والآيات الدالة على قدرة الخالق الصانع الحكيم. لينظروا إلى الشمس والقمر والنجوم والبحار والأنهار والأشجار والتراب فكل ذلك آيات دالة على وحدانيته تعالى.

لكن الذي يصر على جهله ويرفض النظر والتدبر وليس عنده استعداد للحوار العقلي فإنه لن تنفعه الآيات والمعجزات ولن ينفعه نافع بغياب عقله وحوار عقله إن الجاهل والمصر على أن يبقى جاهلا سيبقى دون إيمان وسيموت كافرا لأنه لم يستخدم عقله وحوار عقله حتى يصل إلى الإيمان بالله.

وما داموا كذلك يرفضون العقل ويرفضون الإيمان فلن ينتظروا سوى أيام سود كأيام من سبقهم من الأقوام كقوم نوح وعاد وثمود وآل فرعون.

وهنا يلجأ القرآن إلى الوعيد والتهديد بعد أن طلب منهم ويطلب من كل الملحدين التدبر والتفكر والتبصر.

فحتى في تسلسل الحوار القرآني نرى أن رحمة الله بالانسان سبقت تهديده ووعيده وهذا هو المنطق الذي يناسب العقل البشري الذي خلقه الله خلقا متكاملا يحاوره ويتمهل عليه حتى إذا اختار طريق الشر هدده وأنذره وحتى في التهديد والانذار عبرة فليعتبر الانسان بما حل بالأقوام التي سبقت. حتى آخر لحظة تمتد رحمة الله عسى أن يعود الانسان إلى عقله ورشده وصوابه.

إن أسلوب القرآن الكريم في إثبات العقيدة الصحيحة عن الله في وجوده ووحدانيته ورحمته هي طريقة الحوار المنطقي العقلي السهل الخالي من التعقيدات والتكلفات. فهو في ذلك يتناسب مع جميع العقول مهما اختلفت مستويات التفكير. فهو لايكلف الانسان إلا النظر في ملكوت السموات والأرض ليدرك أن جميع المخلوقات قامت على سنن كونية وقوانين مطردة لاتتخلف. وإن جميع هذه السنن والقوانين في كل عالم من عوالم الخلق مترابطة متعاونة متفاعلة بحيث يجزم العقل المنصف بأنها صنعة متقنة لصانع واحد حكيم رحيم.

ونهج القرآن الكريم في الاستدلال والاهتداء هو دائما تبصير العقل وإيقاظه للنظر في آيات الله وفي ملكوته للوصول إلى معرفة الله معرفة اليقين. «هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون، ينبت لكم

الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ، ومن كل الثمرات إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون. وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون »، والقرآن حافل بدعوة الناس إلى التفكير والتعقل والتدبر لهذا الكون.

وفي الآيات السابقة وغيرها من الآيات القرآنية الكريمة نرى أن القرآن الكريم يذم الذين لايؤمنون بسبب عدم استخدام عقولهم وحواسهم في النظر والسمع وما عندهم من المواهب التي أنعم الله بها عليهم .

فنهج القرآن حاسم في أنه يريد الإنسان أن يكون واعيا ملاحظا ناظرا متدبرا متعقلا لما حوله . وينعى على الذين يعطلون هذه المواهب والحواس المقومة لانسانيتهم مثل أولئك الذين يقلدون ولايحركون عقولهم أو يبغون الحق والهدى.

إن هذه الآيات التي يحاور العقل فيها قرآنيا تهدف إلى دفع العقل البشري إلى النظر في السموات والأرض وما خلق الله من كائنات. ولعل من لم يكن له هذه القوة المدركة – وهي العقل – لا يبلغ درجة اليقين في دينه ولاتتمكن روحه من معرفة الله حق معرفته . وإذا تمت المعرفة للإنسان وآمن ، أكتملت له

مقومات حياته العقلية والروحية وشرح الله قلبه بالسعة وغمره بالنور والسكينة وألهمه المعرفة من عنده . (١)

ويتحدى القرآن العظيم جميع العقول المدّعية والواهمة بحوار عقلي فيه الوضوح الصارخ وفيه الحصار الذي لا يدع مجالا للهروب من حقيقة وجود الله . ففي خلق السموات معجزات يقف العقل ضعيفا ومتلاشيا أمام عظمتها وفي خلق الأرض كذلك وفي خلق هذا الكون العجيب الواسع .

يقول تعالى في سورة (المؤمنون) "لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين (٨٣) قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون (٨٤) سيقولون لله قل أفلا تذكرون (٨٥) قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم (٨٦) سيقولون لله قل أفلا تتقون (٨٧) قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولايجار عليه إن كنتم تعلمون (٨٨) سيقولون لله قل فأنى تسحرون (٨٩) بل آتيناهم بالحق وإنهم لكاذبون" (٩٠).

فهؤلاء الكفار يحتجون بأن آباءهم وأجدادهم أخبروهم من قبل أن رسلا زعموا أن بعد الموت حياة فما رأينا أحدا يخرج من قبره ويبعث. وقد ظنوا لجهلهم أن الله سيبعثهم في الدنيا وليس في الآخرة.

فيحاورهم القرآن الكريم الحوار الذي لاتصمد أمامه العقول مهما كبرت ومهما علمت، يجيبهم القرآن طالما أنتم تنكرون البعث فلمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون ذلك فهذا عين السخرية وعين الجهالة. فإن قلتم إن ذلك لله فهذا اعتراف عقلي لايمكن لأي عقل إلا أن يقربه. وطالما أنكم تعترفون بذلك أفلا تصدقون أن الذي يملك الأرض وما فيها بقادر على أن يعيدكم بعد الموت ؟ أفلا تعقلون وتتنبهون لذلك ؟ ويستمر القرآن بحواره يلفت أنظارهم إلى الأرض وهي محسوسة لديهم ثم يدفعهم ويدفع عقولهم للنظر في السموات السبع ويسألهم لمن هذه السموات ؟ بالطبع سيقولون لله اضطرارا ومكرهين، لأنه لا مناص أمام العقل من الاعتراف بذلك فإن كنتم تقرون ذلك فكيف تنكرون على خالق السموات أن يعيدكم بعد الموت ؟ ألا تخافون عقاب هذا الخالق وتخشونه ؟

ويستمر الحوار ليفصل أكثر وأكثر ويسألهم القرآن محاورا عقولهم من بيده ملكوت كل شيء في السماء من نجوم تعد بالمليارات وكواكب ومجرات وفي الأرض من ملايين الينابيع وآلاف الجبال وملايين الأتربة والمعادن والحيوانات والنباتات والبشر، من بيده ملكوت هذه الأشياء ؟ أأنتم تحفظون وتجيرون وتغيثون أم خالق هذا الكون وستضطر عقولهم للاعتراف أنهم يستجيرون بالله دون سواه. فما دمتم تستجيرون بالله فكيف تخدعون وتصرفون عن الايمان

وكيف تتصورون أن تشركوا بالله وتعبدون مالاينفع ولايضر ؟ لقد آن لكم أن تؤمنوا بهذا الخالق العظيم وتؤمنوا أيضا بأنه القادر على إحيائكم بعد موتكم.

لقد بينا لكم طريق الحق فهل من حجة لديكم ؟بالطبع لا، لأنكم كاذبون مخادعون ولو كانت عقولكم بعيدة عن الجهل لاقتنعتم بالحجج والبراهين التي بيناها لكم ويقول سبحانه في سورة النازعات (أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها، رفع سمكها فسواها، وأغطش ليلها وأخرج ضحاها، والأرض بعد ذلك دحاها، أخرج منها ماءها ومرعاها، والجبال أرساها، متاعا لكم ولأنعامكم) ٢٧ - ٣٣.

فإذا كنتم مصرين على إلحادكم فإننا وإياكم والعقل فأجيبوا إن كنتم تستطيعون ! إذا كنتم أشد خلقا وأقدر من رب العالمين على الخلق فهل أنتم خلقتم السماء أم هو الذي خلها وبناها بعظمتها وكبرها. وسواها لاترون فيها اعوجاجا ولاانحرافا، ثم انظروا كيف جعل ليلها أسود ثم إذا بالضحى والشمس تخرج لتنير لكم هذه السماء وهذا الفضاء هل أنتم أشد خلقا. ثم انظروا إلى الأرض كيف دحاها ولو لم يكن الله قد أراد بقدرته أن تكون هكذا مدحية فهل يبقى حياة عليها ؟ انظروا إلى الأرض كيف يرتبط شكلها بخطوط عرضها وطولها وحرارتها وبرودتها. أليس في ذلك الخلق حكمة ؟ حتى يبقى التوازن

قائما وتبقى الحياة عليها إلى أن يرث الله الأرض وما عليها ومن عليها.

أأنتم أشد خلقا ؟ انظروا كيف فجرنا هذه الأرض عيونا وينابيع وكيف أنشأ ربها الحب فخرج المرعى حتى يكون لكم متاعا ولأنعامكم من حيوانات وغيرها. أأنتم أشد خلقا فلتنظروا إلى الجبال كيف أرساها وجعلها تستقر حتى لا ينحرف مدار الأرض وحتى لاتبقى الأرض معرضة للاهتزاز والزلازل والسير فى الفضاء الرحب دون قوة تضبطها وتسيّرها حسب تقدير دقيق ومعلوم ؟ أأنتم أشد خلقا من الله الواحد الخالق القادر.. السماء، الليل، الفجر. الأرض، الجبال، الحياة، الأنعام. أليست كلها آيات عظيمة ودلالات على عجزكم أمام قدرة خالقكم ومصوركم ومكونكم ؟

ويقول سبحانه في سورة المرسلات : (ألم نجعل الأرض كفاتا، أحياء وأمواتا، وجعلنا فيها رواسي شامخات وأسقيناكم ماء فراتا) ٢٥ - ٢٧.

ويقول تعالى في سورة النبأ : «ألم نجعل الأرض مهادا، والجبال أوتادا» ....٦ - ٧. حوار العقل هنا يدخل به القرآن أبسط الأمور وأكثرها قربا من حواس الانسان لكن الأهمية العظيمة تكمن في هذا التساؤل الاستنكاري ومن ثم الدعوة إلى التبصر. ففي سورة النازعات يطرح الحوار القرآني على عقل الانسان النظر إلى هذه الأرض التي جعلها الله سبحانه مأوى للانسان، فوقها

يعيش الاحياء وتحتها يدفن الأموات. فهي تضم الأحياء والأموات على السواء ثم يطرح السؤال ذاته على العقل البشري ألم نجعل فيها رواسي شامخات. فمعجزة خلق الله سبحانه لهذه الأرض والجبال تدعو الانسان للتفكر في صانع هذا الوجود. ويستمر الحوار في شؤون الانسان، لننظر الماء العذب الذي يتفجر من ينابيع جبلية وغيرها ، ماذا لو جاء هذا الماء مالحا أو مرا أو حامضا ؟ أيستسيغه بشر ؟ إن الله سبحانه الذي خلق الأرض جعلها تحوي، وتحمل فوقها وفي جوفها كل مستلزمات الحياة والموت، وأسباب الحياة لبني البشر والحيوان والطير والنبات.

تلك الأرض التي جعلناها مأوى للانسان ميته وحيّه جعلناها أيضا مهادا تسيرون فيها بيسر لكن الله قادر على إعادتكم كما هو قادر على جعل تلك الأرض مهادا وفراشا. وها هي الجبال الرواسي لم نأت بها عبثا إنما هي كالأوتاد التي تجعل ميزان الأرض واتزانها متماسكين ويجعل الأرض ذاتها متزنة لا تموج ولا تميل بالبشر إلا بإذن الله. ونعود إلى ما خلق الله سبحانه من حيوان ونبات وبشر على هذه الأرض. لقد ركز القرآن الكريم على مخاطبة العقل والحوار معه حتى يصل به إلى قناعة راسخة ويقين قوي وإيمان بالله الخالق المدبّر.

ركز على خلق السموات والأرض وما بينهما لأنهما آيتان محسوستان لدي النظر والسمع. فجاء ذكر السماء عشرات المرات وكذلك الأرض. ولم يأت ذكرهما بغير معنى، ففي كل تكرار تحدّ وفي كل إعادة دعوة للحوار والايمان. ومادام العقل البشري يدّعي أنه لايقبل شيئا من دون نقاش مقنع فقد جاءت آيات الكتاب المبين مركزة على البراهين العقلية الدالة على وجود الخالق العظيم مكثفة عباراتها معجزة في صدمها للعقل صدما منطقيا. وكلما حاول التناسي أو الابتعاد عن الايمان يدعوه القرآن عن طريق الحوار المنطقي إلى التفكر ومن ثم العودة الى الايمان الصحيح بالله والاقتناع الواعي بالخالق العظيم كيف يحاور القرآن العقل البشري في خلق الحيوان والحشرة والنبات ؟

من الطبيعي أن يأتي القرآن بالنظرة الشمولية للأشياء ومن ثم إلى النظرة الجزئية ولا يدع التحليل أو التركيب دون أن يستخدمه في سبيل غاية الايضاح وتعميق الايمان لدى البشر لقد تحدث عن السماء والأرض وما بينهما، تحدث عن الجبال والبحار والأنهار وكلها آيات معجزة للعقل البشري وهي كبيرة كبيرة وعظيمة عظيمة، يصغر أمامها الانسان كثيرا، ورغم ذلك فالعقل الذي يظل يشكك لا بد أن يحاوره القرآن ويصل به إلى نظافة العقل والقلب والوجدان والوعي.

ودوما يأتي القرآن العظيم بربط عقلي بين أسباب الخلق ونتائجه وغاياته وطبيعته والتركيز القرآني على مخلوقات الله كثير ودقيق. وطالما هي مخلوقات تحيط بحياة الانسان فقد جاءت المعجزة القرآنية عليها تقريبا لذهن البشر كون هذا العقل محدودا جدا أمام عظمة الخالق وإعجازه.

يقول تعالى في سورة النحل «والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون (٥) ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون (٦) وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرؤوف رحيم (٧) والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق مالا تعلمون (٨) وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين (٩) هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون (١٠) ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون (١١) وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون (١٢) وماذرألكم في الأرض مختلفا ألوانه إن في ذلك لآية لقوم يذكرون (١٣) وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون (١٤) وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وأنهارا وسبلا لعلكم تهتدون (١٥) وعلامات وبالنجم هم يهتدون (١٦) أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون (١٧) وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله غفور رحيم (١٨).

ففي هذه الآيات الكريمة يفصل القرآن الكريم للعقل البشري ما خلق الله من أنعام على وجه الأرض ويبين فيها أيضا دروسا عظيمة في استخدام تلك الأنعام لمنفعة الناس. وفي آيات سابقة من سورة النحل يذكر القرآن الكريم خلق السموات والأرض ثم يذكر خلق الانسان ثم جاء بهذه الآيات ليذكر ما ينتفع به الانسان، ولما كان أعظم ضرورات الانسان إلى الأكل واللباس اللذين يقوم بهما بدن الانسان، بدأ بذكر الحيوان المنتفع به في ذلك وهو الأنعام من إبل وبقر وغنم. ولما كانت منافع هذه الأنعام منها ضرورية ومنها غير ضرورية بدأ الله بذكر المنافع الضرورية فقال تعالى (لكم فيها دفء) وهو ما يستدفأ به من اللباس ونحوه المتخذ من الأصواف والأوبار والأشعار الحاصلة من النعم. ولعل حليب الابل مما يدفيء جسم الانسان أيضا.

ثم يأتي قوله تعالى: «ولكم فيها جمال حين تريحون»... فهذه الحيوانات عندما تعود من مرعاها ممتلئة البطن فإنها تزيّن البيوت والساحات وتسر الناظرين لجمالها وهي متزينة بصحتها وفرحها حين عودتها من المرعى.

ثم هي تحمل أمتعتكم في سفركم وما يحتاج إليه البشر من آلات السفر. وتجوب بكم الأرض وتوصلكم إلى بلاد لم تكونوا لتصلوا إليها إلا بشق الأنفس

أليس هذا سبب عقلي كي تؤمنوا بالله الواحد الخالق ؟ أليس ذلك مدعاة للتفكير بالله الرؤوف الرحيم الذي رأف بكم وأشفق عليكم وخلق لكم هذه الحيوانات التي تريحكم وتدفئكم وتطعمكم ؟ انظروا إلى ما خلق لكم من خيل وبغال وحمير. ألم تكن هي الوسائل لنقلكم ولكن الله سبحانه يخلق من الوسائل مالا تعلمون ومالم يعلمه الجاهلون عرفنا بعضه في عصرنا من سيارات وقطارات وطائرات. وذلك قوله « ويخلق مالاتعلمون » والمقصود به وسائل النقل استكمالا للحديث عن البغال والخيل والحمير.

وينتقل القرآن للحديث عما أنزله الله من السماء من ماء، فهذا الماء فيه شراب لكم وشراب للزرع الذي تأكله الأنعام من كافة الحيوانات التي ترعى وتطلقونها تأكل مما نبت من الزرع بأمر ربها.

ولينظر العقل البشري إلى هذا الترتيب القرآني في حواره مع العقل نفسه فيرى أن الله لما ذكر المنافع مفصلة في الحيوان ذكر المنافع في النبات تفصيلا، ذكر الزرع وهو أهم من الشجر لأن فيه الحنطة والشعير وبها قوام جسد الانسان ثم ذكر الزيتون لما فيه من الزيت والبركة وتلاه بذكر النخيل لأن ثمرة التمر فاكهة وثمرة طيبة وختم بذكر الأعناب لأنه أشبه بالنخيل في المنفعة والطيب، ثم ذكر سائر الثمار لينبه بذلك على عظيم قدرته وجزيل نعمته على عباده.

ونصل هنا مع القرآن إلى جوهر الحوار وبيانه. إن كل ماذكر من أنعام ونبات يحتاج لتحريك ملكة العقل التي يجب أن تتدبر وتتبصر فيما خلق الله تدبرا دقيقا وتبصرا واعيا عاقلا. إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون. إن إنبات النبات بالماء يحتاج إلى مزيد تأمل واستعمال فكر. ألا ترى أن الحبة الواحدة إذا وضعت في الأرض ومر عليها مقدار من الزمن مع رطوبة الأرض فإنها تنتفخ وينشق أعلاها فيصعد منها شجرة إلى الهواء وأسفلها تغوص منه عروق في الأرض ثم ينمو الأعلى ويقوى وتخرج منه الأوراق والأزهار والأكمام والثمار المشتملة على أجسام مختلفة الطباع والطعوم والألوان والروائح والأشكال والمنافع. فدعوة القرآن العقل كي يتفكر هي دعوة إلى معرفة آثار خلق الله العظيم الذي لايمكن أن يشبهه شيء في شيء من صفات الكمال. لقد ختم الآية الثانية بالعقل لأن العلويات أظهر دلالة على قدرة الله العظيمة. وختم الثالثة بالتذكير ليرى الناس أن اختلاف المخلوقات في الأشكال والهيئات ليس إلا بصنع صانع حكيم. وما يتذكر إلا أصحاب الألباب والعقول الناضجة الواعية.

لقد سخر سبحانه لكم ما في الأرض من دواب وأشجار وأنهار وبحار وجبال. وإن اختلاف كل شيء عن الآخر باللون والحجم والشكل من مخلوقات الله لمدعاة للإيمان ودليل قاطع على كمال قدرة الله.

ويتابع القرآن العظيم حواره للعقل حين يتحدث عن تذليله البحر للناس بحيث يتمكن الناس من الانتفاع به إما بالركوب على ظهره أو بالغوص فيه أو الصيد منه وقد بدأ بذكر الأكل لأنه أعظم المقصود ولأن به قوام البدن. وفي ذكر الطري من لحم السمك مزيد فائدة دالة على كمال قدرة الخالق العظيم. لأن السمك لو كان كله مالحا لما كان فيه فائدة دالة للإنسان ووصفه بالطري لأنه أرطب اللحوم فيسرع إليه الفساد فيسارع من يصيده إلى أكله.

وتكملة لبيان القدرة الربانية فقد تحدث القرآن بعد الصيد عن إخراج الحلية كاللؤلؤ والمرجان ونحوهما. ثم تحدث عن نعمة جريان السفن في البحار لما في ذلك من الفوائد العظيمة والأرباح الجسيمة التي يجنيها الانسان من ذلك.

فبعد أن أقام الله سبحانه الدلائل المتكاثرة على كمال قدرته يستفهم بشكل إنكاري شديد أفمن يخلق كمن لايخلق ؟ حوار من خلال هذا الاستفهام لعل الانسان العاقل يتذكر ويقارن، الله يتفرد بخلقه ولايساويه أحد ولايشاركه في خلقه أحد.

لقد حاور القرآن العظيم عقل الا نسان بالمخلوقات الكبرى والصغرى ومنافعها حتى أوصله إلى هذه النتيجة التي لابد لكل عاقل أن يسأل عنها،

وبمجرد السؤال يقف العقل ضعيفا أمام الله وماخلقه . وتخر العقول والأجساد خاشعة معترفة بعظمة هذا الخالق الذي ينعم عليكم بهذه النعم رغم نكرانهم لفضله وعظمته وهو غفور رحيم لأنه لم يقطع النعم عنكم بسبب التقصير في الطاعة وبسبب اجتراحكم المعاصي .

لقد خلق الله سبحانه الحيوان صغيره وكبيره وكلّه دال على وجوده ووحدانيته ، وقد رأينا في سورة النحل مايعجز العقل البشري من آيات كونية وخلقية ، وكذلك خصّ الله العنكبوت بسورة والنمل بسورة والبقرة بسورة أخرى والفيل وجاء في آيات آخرى بالحديث عن الذباب والبعوض . فهل أتى بها عبثا ، فمن أضعفها إلى أضخمها ومن ذكيها إلى غير ذلك كل خلق الله وصنعته جاء به ليحاور العقل ويدله على عظمة الخالق . العنكبوت ونسيجه الواهي لكنه المصنوع بشكل أو بأشكال هندسية يعجزالإنسان عن صنعها وهندستها .

والنمل الذي يعيش تحت التراب أنه يبني مستعمرات منظمة له جنوده وعماله وعمله في الصيف وراحته في الشتاء والنحل الذي يوحي له ربه اتخاذ البيوت في الجبال والأشجار ومايصنعه الإنسان من عريش العنب وغيره . وهذا الشمع الذي يصنعه النحل بشكل هندسي لا مثيل له ، وهذا النظام السلوكي الإجتماعي الذي يعيش في نظامه . كل ذلك دعوة من قبل القرآن لكل عقل كي ينظر ويتفكر ويتبصر ويعقل ويفكر ، أليس كل ذلك سببا مقنعا وعقليا للوصول

إلى الإيمان بالله الخالق العظيم ؟

كل شيء في الوجود آية دالة على الصانع الخالق . وإذا كان العقل لايرضى الإيمان ببساطة فلينظر إلى حوار القرآن الذي يتسع ويتسع ويمتد ، وكل ذلك لأجل الاقناع الواقعي المنطقي الذي يريده الله لبني البشر ليصلوا سعادة الإيمان وقوته .

ولعل الإنسان نفسه محور أساسي من محاور القرآن الكريم ، يدور حوله حوار الآيات الكريمة الكثيرة . وليس عجبا أن يطول الحوار في آيات طوال وأخرى قصار تنبع منها مفاتيح الإيمان بالله الخالق المبدع .

وإذا كان خلق السموات والأرض ومابينهما غير كاف لك أيها العقل القاصر فلتنظر إذا في نفسك . لتنظر في هذا المسمّى إنسانا . أصله وجذوره ومايؤول إليه بعد حين .

يقول تعالى في سورة الحج : (ياأيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغيرمخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام مانشاء إلى أجل مسمّى ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج) (٥)

هنا يدخل حوار العقل عالما آخر من الاقناع . يجعل الإنسان أمام نفسه مباشرة لايبعد كثيرا إلى خارج جسده ونفسه ، لايطلب منه النظر في الكون والنجوم والجبال بل يطلب منه النظر في هذا الكائن العجيب (الإنسان) .

فالخطاب هنا لكل الناس والحوار مع كل عقل يشك في الآخرة ويوم القيامة. حوار مع هذا العقل الذي ينفي الحقائق والوقائع . إن كنتم تشكون في قدرة الله على إعادتكم فانظروا مما خلقناكم ..لقد خلقناكم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة . انظروا في هذه النطفة إن كانت العقول قادرة على الاستيعاب فلتفكر في هذه النطفة . إنها كمية ضئيلة من سائل يسمى المنيّ ، يعيش في الخصيتين والحويصلات المنوية التي تخزن هذه الحيوانات الدقيقة ويعيش أيضا في مسالك بولية أخرى . وتعطيه البروستاتا سائلا يعطي للسائل المنوي قوامه الغليظ ورائحته الخاصة . أتدري أيها العقل الإنساني المنكر لقدرة الله أن هذه الخلية المنوية شديدة الاستطالة يقاس طولها بمقياس ١:١٠,٠٠٠ ملم .

إن عنصرا واحدا من بين عشرات الملايين الصادرة من رجل عادي يصل إلى البويضة ويتبقى عدد كبير في الطريق ولاينجح في قطع المسافة التي تؤدي من المهبل إلى البويضة عبر تجويف الرحم ؟

هذا عن النطفة فماذا عن العلقة . إن هذه النطفة تتعلق بجدار الرحم بعد أن تتحد بالبويضة وهذا الاتحاد سوف ينشيء المضغة . التي هي أشبه بقطعة لحم ممضوغة ثم تبدأ بالتخليق في جزء منها ، وبداخلها تتكون العظام . وتستمر عملية الخلق إلى أجل مسمى تسعة أشهر في هذا المستقر المسمى رحما . ثم تخرجون من الرحم أطفالاوتسيرون في هذه الحياة فتبلغون أشدكم فمنكم من يموت ومنكم من يعيش إلى أرذل العمر . ثم يموت أيضا . وحتى يكون العقل على تفهم واع لهذا الحوار فإن القرآن ضرب مثلا الأرض الهامدة التي ما إن ينزل عليها الماء حتى راحت تنبت النبات بشتى صنوفه .

ويقول تعالى في سورة يس (أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة ، فإذا هو خصيم مبين ، وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم ، قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ، الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون ، أوليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم ، إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ، فسبحن الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون " ٧٧-٨٣ .

إن عظمة القرآن في تحدي الإنسان تكمن في هذا الحوار العقلي مع كل إنسان كافر أو مؤمن بل هو موجه للكافر الذي يجادل في حكمة خلق الله لهذا

المخلوق الضعيف ، ألم ينظر ويتفكر أننا خلقناه من نطفة خسيسة تخرج من الاحليل الذي هو قناة النجاسة فليفكر إن كان له عقل أن أصل الإنسان هكذا فلماذا يخاصم ربه ويتحدى خالقه ؟وينكر يوم البعث والنشور . ومن الطبيعي جدا أن القادر على خلق الإنسان من هذه النطفة هو قادر على إعادته بعد الموت . وبسبب جهل هذا الإنسان أيا كان أشار إلى عظم قد بلي وتساءل أحقا سيعيد الله هذا العظم إنسانا من جديد ؟ ويرد القرآن لو أنك عاقل أيها الكافر الجاحد بقدرة الله لما ضربت مثلا من خارجك فانظر إلى نفسك أولى لك ، فالذي خلقك من نطفة قادر على إعادتك وبعثك مرة أخرى ولو تعلمت من نفسك وكيف تم خلقها لكان لك ماهو أعظم على تعريفك بربك القادر الخالق إن الذي يحيى هذه العظام البالية هو الذي خلقها ولم تك شيئا أليس من واجب العقل أن يقتنع بهذا الجواب المنطقي العقلي ؟ أليس أحرى بالعقل الناضج أن يؤمن بعد أن بين القرآن عظمة خلق الله في البداية والنهاية ؟.

إن القرآن الكريم الذي ماترك شيئا إلا وبينه في آياته العظيمة يلفت نظر العباد إلى خلق السماوات والأرض التي هي أعظم من خلق الإنسان ويرشد عقولهم للإستدلال على إعادة الأجساد بخلق هذه الأشياء فهو كقوله تعالى في سورة (غافر) حين يقول " لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس" الآية ٥٧ .

إن الله إذا أمر بشيء فإنه يكون والله أعلم بزمن خلقه لكل شيء . فالعقل البشرى عاجز قاصر عن أن يستوعب تكوين الشيء بمجرد قوله تعالى كن ، إذا لو عقل الإنسان لأعاد حساباته في كل لحظة وفكر في خلق جسمه وذاته في كل لحظة والعقل هوالقادر على التفكير الصحيح بالأسباب والنتائج . وكل ذلك يوصله إلى الإيمان بالله الخالق العظيم .

ويقول تعالى في سورة القيامة : « أيحسب الإنسان أن يترك سدى، ألم يك نطفة من مني يمنى، ثم كان علقة فخلق فسوى، فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى، أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى » ٣٦-٤٠ .

كل هذه الآيات تتعلق بسؤال حواري واحد هذا الحوار موجه للإنسان كل إنسان قبل أن يكون مؤمنا أو مقتنعا . إنه سؤال يصدم العقل البشري .
أيترك الإنسان سدى ؟ بالطبع ليس من المنطق ولا العقل أن يخلق الإنسان عبثا دون سبب ودون نتيجة لن يترك سدى لأن عظمة الله تجلت في خلقه نطفة ثم علقة ثم كونّه إنسانا وسوف يموت ، هكذامنطق دورة الحياة البشرية . وطالما أن الله سبحانه هوالذي خلقه من نطفة فهو القادر على بعثه يوم القيامة .

إن في هذه الآيات تذكرة لهذا العقل البشري وردا على من يقولون إن الإنسان يعيش ويموت في عبثية ليس من ورائها طائل . فهو يذكر كل عقل يقول

بالعبثية بأن هذا البشر خلقناه من نطفة أي من شيء ليس له قيمة ثم كوناه إنسانا قد يكون رجلا أو أنثى وهذا عائد إلى أمر الله ثم سوف يموت ، أفليس الذي خلقه بقادر على أن يعيده بعد موته . فليفكر العقل بشكل بديهي ومركز ليرى أن القوانين الالهية مرتبة منظمة حسب علم الله وقانونه وسنة خلقه للبشر . ويقول تعالى في سورة عبس : "قتل الإنسان ما أكفره، من أي شيء خلقه، من نطفة خلقه فقدره، ثم السبيل يسّره ثم أماته فأقبره، ثم إذا شاء أنشره " ١٧-٢٢ فرغم أن الحوار القرآني يؤكد على خلق للإنسان، ويذكر العقل البشري بالنشأة الأولى فإن هذا الإنسان أشد كفرا وأكبر عنادا وسبب ذلك جهله بالمنطق العقلي الذي يسير به نهج القرآن العظيم . فالذي خلقه من نطفة ثم قدر له أن يكون بشرا ويسّر أمره ومعاشه في هذه الدنيا ثم أماته ودفن في التراب هو وحده الخالق العظيم القادر على إعادته من جديد .

إن حوار العقل من قبل آيات الكتاب الكريم تتوسع كثيرا ولا تقف عند العموميات بل تدخل في أدق التفاصيل ، فهي تتحدث عن القرار المكين للجنين وتتحدث عن خلق الله مكونات الجسد البشري من عينين ، ولسان وشفتين . والله الذي خلق السمع والبصر والفؤاد وخلق الشعر واليد والرجل وكل مافي الإنسان من دقائق الخلق وعجائبه .

فإذا كانت الكليات التي يحاور بشأنها القرآن الكريم والتي يقبل بها ويسلم بها العقل الناضج المستقيم إذا كانت هذه الكليات براهين واضحة على عظمة الخالق فإن دقائق الأمور قادرة على أن تصدم أعظم العقول وأعتاها . وقادرة على أن تصحح مسار الأدمغة جميعها . والقرآن الكريم يدعو في كل آياته للتبصر والتمعن في خلق الله . « وفي أنفسكم أفلا تبصرون » إنه يصدم العقل البشري والوعي الإنساني كي يصحو ويصحو ليصل إلى الإيمان النظيف الإيمان الذي لا يخالفه عقل ولا يحاربه فكر بل هما من أهم دوافعه نحو الايمان الذي تستقر فيه سفينة البحث عن حقائق الكون . ودلائل الخالق العظيم .

الفصل الرابع

القرآن وحوار العقل في الحياة والموت

كل الموجودات في هذه الأرض في تضاد وتناقض وتكامل وترابط فإذا كان الإنسان الذي خلق من نطفة ثم من علقة ثم صار بشراً قدر له أن يعيش هذه الحياة فلابد أن تكون له نهاية حتمية ونهايته هي الموت الجسدي لامحالة .

فمن الناس من ظن أن الموت نهاية الجسد والروح فكفروا بالله العظيم لأنهم كفروا بما بعد الموت ، ومنهم من ظن أن الدهر يهلكهم دون أن يعرفوا كنه هذا الدهر وماهيته فالخلود ليس وجودا في عالم الماديات ، وكل ماخلقه الله قدر له نهاية جزئية أو كلية . وذلك ليدرك العقل البشري أن الإنسان الذى خلقه الله لم يخلقه لكي يخلد فى هذه الدنيا فلا خلود ولادوام إلا لوجه الله العظيم .

ولو أن العقل البشري فكر مليا فى دورة الحياة منذ أن يكون الإنسان طفلا وحتى يصل نهاية العجز والشيخوخة لفكر بكل قناعة أن مابعد هذا العجز موت آت محالة .

والقرآن الكريم ركز على هذه الناحية كتركيزه على دعوة العقل للتفكر بخلق السموات والأرض وخلق الإنسان . وهذا التركيز جاء ردا على كل الظنون التى ارتكبها بنو البشر فى حق أنفسهم وفى حق خالقهم سبحانه وتعالى .

مامعنى الحياة والموت وما الغاية منهما ؟ ألم يشغل عقل الانسان بهذا السؤال طوال وجود البشرية على هذه الأرض ؟

والقرآن يجيب من خلال حواره العقلي المقنع لا من خلال القسر والاكراه ، وإنه يدعوا هذا العقل للتمعن والتفكر طويلا قبل أن يصل إلى قناعة راسخة بالإيمان بالله القادر على كل شيء .

لقد بينت آيات القرآن الكريم أن الأنبياء الذين يفضلون البشر بإيمانهم وبإخلاصهم الحقيقي لخالقهم هم بشر ينطبق عليهم الموت كما ينطبق على كافة مخلوقات الله فكيف بالناس العاديين أيجعلهم الله خالدين وهو الذي لم يمنح الخلود لأعز الناس له وهم الأنبياء ؟

إن قانون الخلق الإلهي يحتم الموت . فكل نفس ذائقة الموت ، لماذا ؟ لأنها نفس خلقت من مكونات تحمل فى داخلها ماهية الفناء فالجسد خلق من تراب ولادوام لهذا الجسد لأنه سيعود إلى أصله ، والروح خلقت من ماهية مغايرة فلابد أن تعود إلى أصلها الروحاني الذي لايعلمه إلا الله خالقه وخالق الجسد .

إن قانون الفناء الذي ينطبق على كل مادة لايفصل الإنسان عن خضوعه لهذا القانون أليس الجسد ترابا ؟ أليس التراب مادة ؟ وكل مادة قابلة للتغيير مهماكان

شأنها ومهما صغرت أوكبرت . وقد عرفت الفلسفة منذ نشوء أول الحكماء على الأرض أن المادة لابد سائرة إلى التغيير وليس من العقل أن لاينطبق هذاالقانون على الجسد البشري . طالما أن مكوناته مادية . والمادة تعود إلى المادة لامحالة .

وفي القرآن الكريم جاء للحياة والموت شأن مهم بسبب توجه الآيات الكريمة لبنى البشر تعلمهم وتتحداهم وتوضح لهم شأن الحياة والموت لدى ماخلق الله سبحانه .

وإذا وردت كلمة حياة فى القرآن الكريم عشرات المرات فإن كلمة الموت قد وردت في ١٦١ موضعا وهذا مايؤكد اهتمام الإسلام الكبير بمسألة الموت . تذكر الآيات الكريمة الناس بالموت وتنصحهم بالإبتعاد عن مغريات الدنيا . مادامت نهاية الإنسان الدنيوية هي الموت ، لكن القرآن الكريم يؤكد دوما أن الموت هو بداية حياة أخرى وهذه الحياة ليست كحياتنا الدنيوية إنها حياة الخلود الأبدي الذى لايعرف سره إلا خالقه عز وجل .

الموت سيلحق الجميع ولا أحد يخلد سوى وجهه الكريم . وهوبذلك نهاية حتمية لكل مخلوق وطالما أنه كذلك فإن الإنسان مهما حاول الهروب منه فلابد أنه ملاحقه ولو كان في برج محصن . وبما أن القرآن الكريم يأتي على حوار

العقل بمنطق إيجاد السبب والنتيجة فإنه تحدث عن الموت وأنه بيد الله سبحانه وحده ولايموت بشر إلا بإذن الله وحسب مقتضيات سببية موضوعية . الموت واحد في كافة الحالات لكن الله جعل لكل شيء سببا فلا موت بلا سبب البتة .

يقول تعالى في سورة مريم " ويقول الإنسان آإذا مامت لسوف أخرج حيا (٦٦) أولا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا (٦٧) فوربك لنحشرنهم والشياطين ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا (٦٨) " ففى هذه الآيات الكريمة يصف القرآن حوار الإنسان مع نفسه حول البعث بعد الموت فيأتي القرآن برده الذى يربط السبب بالنتيجة، لينظر الإنسان إلى سابق عهده كيف خلقناه ولم يك شيئا فالذى خلقه من قبل هو القادر على إعادته بعد الموت .

إذا فالموت نقلة من حياة إلى أخرى . وهذه الآيات جاءت في سياق سورة مريم التى تتحدث عن معجزات إلهية واضحة ، زكريا تمنى أن يكون له ولد وكانت امرأته عاقرا وبلغ هو نفسه من العمر كثيرا . فأجاب الله واستجاب لدعائه فحملت امرأته فكان ذلك معجزة لزكريا ولقومه . وكذلك يبين الله سبحانه كيف خلق عيسى مثل كيفية خلق آدم . لا أب ولازواج بل أراد الله أن يخلق نبيا إنسانا من دون أب .

فالآيات الكريمة جاءت في سياق الحوار القرآني لعقل الإنسان الذى يحاول أن يشكك في العودة بعد الموت . فالشواهد الدالة على قدرة الله كثيرة وليس الإنسان بمعجز ربّه الذي خلق عيسى ويحيى من دون شيء . إنه الله القادر على الإعادة كما هو القادر على الخلق .

ويقول تعالى في سورة المؤمنون " وهو الذي يحيي ويميت وله اختلاف الليل والنهار أفلا تعقلون (٨٠) بل قالوا مثل ماقال الأولون (٨١) قالوا آإذا متنا وكنا ترابا وعظاما آإنا لمبعوثون (٨٢) لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين (٨٣) قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون (٨٤) سيقولون لله قل أفلا تذكرون (٨٥) قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم (٨٦) سيقولون لله أفلا تتقون (٨٧) "

إن الله هو القادر على خلقكم ثم هو القادر على جمعكم للحساب والجزاء . إنه الذي أحياكم بعد أن لم تكونوا شيئا وهو الذي يميتكم عند إنتهاء آجالكم . فاستدلوا على هذا الخالق من خلال خلقه للسماء والأرض والليل والنهار .

يتحدث القرآن الكريم عن الجدل المبني على المنطق العقلي من جهة والجدل الذي يحاول الكفار اصطناعه وهوقائم على الباطل ومخالفة المنطق العقلي .

في البداية ينكر الكافرون يوم الحساب فهم مثل الأقوام السابقة التي كذبت بالآخرة فكان جزاؤها عقابا فى الدنيا وعذابا سيكون من نصيبهم يوم الآخرة .

منطقهم يقول آإذا كنا ترابا وعظاما سنبعث ؟ إن هذا من الوهم والأسطورة لقد وعدنا نحن والأجيال التي سبقتنا من آبائنا وأجدادنا بأن يقوم يوم الحساب فأين هو هذا اليوم ؟ لم نر منه شيئا !

وقبل ان يبين القرآن أنهم على ضلال وإفك يحاورهم عسى أن يفهموا ويعقلوا أن خالق الإنسان والكون هو وحده القادر على إعادة العظام والتراب بشرا يوم الحساب ، يستخدم القرآن الآيات العظمى فى خلق الله ، فيسألهم لمن الأرض إن كنتم تعلمون ، ويسألهم من رب السموات والأرض ورب العرش العظيم ، ومن بيده ملكوت كل شيء ، أليست هذه الأسئلة الإستنكارية كافية لتدلكم على أن القادر على خلق السموات والأرض والقادر على كل شيء هو الله القادر على بعثكم يوم القيامة ؟

ويقول تعالى في سورة البقرة : " أو كالذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها قال أنى يحيي هذه الله بعد موتها ، فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم

لبثت قال لبثت يوما أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنّه ، وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر إلى العظام كيف ننشرها ثم نكسوها لحما فلما تبيّن له قال أعلم أن الله على كل شيء قدير (٢٥٩) وإذاقال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهنّ يأتينك سعيا واعلم أن الله عزيز حكيم ٢٦٠. "

فإعجاز القرآن في قصة الموت والحياة تأتي من خلال هذا الحوار القصير الذي يدور ليؤكد أن الله الذي يميت هو الذي يحيي . يمر هذا الإنسان وكل إنسان على قرية مدمرة مكسرة الحيطان والسقوف وأهلها ميتون أو غير موجودين فيتساءل هل من حياة لهذا الدمار ؟. أيعقل أن تعود هذه القرية إلى حالها ؟ فهذا التساؤل الذي لايخلوا من شيءٍ من الشك لابد أن يقابله القرآن العظيم بحجة دامغة تزيل كل الشكوك حول قدرة الله سبحانه في خلق البشر من جديد وإعادتهم إلى حياة أخرى .. يميته الله مائة عام ثم يبعثه ليدمغه بالحجة الإلهية . كم لبثت ؟ أجاب يوما أو بعض يوم . لقد ظن أنه عندما أماته الله قد نام وكان النهار في أوله . فلما أحياه الله كان النهار قد أوشك على الغروب . فظن أنه نام بعض النهار . فجاءه قوله لقد مت مائة عام وإذا أردت

الدليل فانظر إلى هذا الطعام وهذا الشراب . وانظر إلى الحمار الذي مت وإياه. انظرأين هو ؟ ثم انظر إلى عظامه . وراحت العظام بقدرة ربها تتجمع حتى أصبحت هيكلا عظميا للحمار ثم أمر الله سبحانه أن تكسى العظام لحما . فكسيت. وكل ذلك أمام عينيه ينظر قدرة الخالق العظيم وكانت الحجة بالغة . فاقتنع أن شيئا من الشك جعله يتعرض لامتحان مائة عام .

وتأتي الآية الأخرى بعد هذه الآية لتتحدث عن قدرة الخالق على بعث الموتى. وبذلك يؤكد الحوار القرآني قصة الإيمان الخالص تجاه الخالق . لقد أقر إبراهيم عليه السلام بالإيمان ولكن الإطمئنان لما يدخل قلبه بعد فطلب من ربه أن يريه كيف يحيى الموتى . فطلب منه أن يأتي بأربعة من الطير يمزقهّن قطعا ثم يضع هذه القطع على تلال متفرقة . ثم أمره ربه أن يناديهن فناداهن فإذا بهن يجتمعن ويعدن إلى السيرة الأولى .

إن العاقل الذي ينظر في سياق الآيتين يرى أن الربط بينهما واضح ودقيق. هناك تساؤل عن قدرة الله على إعادة الموتى . وهنا شك أو عدم اطمئنان . هناك موت وهنا موت وتمزيق . والعبرة في كلا الحالتين أن البصر يرى جهرة كيف تتم عملية إعادة الخلق .

ويقول تعالى في سورة فصلت «ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذى أحياها لمحيي الموتى إنه على كل شيء قدير (٣٩) إن الذين يلحدون فى آياتنا لايخفون علينا أفمن يلقى فى النار خير أم من يأتي آمنا يوم القيامة اعملوا ماشئتم إنه بما تعملون بصير (٤٠)»

فمن يريد أن يعرف مقام ربه ويؤمن به فليقارن فلينظر هذه الأرض التي كانت ساكنة جافة فإذا مانزل المطر عليها استقبلت الحياة وراحت تهتز بنباتاتها التي لاتحيا من دون ماء ، هذه الأرض أليست كالإنسان الذي مات إن الله الذى أعاد الحياة للأرض أليس بقادر على أن يعيد الحياة للأموات ؟ بلى لأن الله قادر على كل شيء . فلينظر الذين يكفرون بالله وبمعجزات خلقه وليعتبروا. إن خالق الوجود ومدبره يعرفهم ويعرف ماخفي من حياتهم وماظهر . إن النتيجة الواقعية والعقلية والمنطقية واضحة للعيان ، من يؤمن بالله وبقدرته له ثواب الجنة ومن يلحد له جزاء النار وكم هو الفرق بين الوجهين .

القرآن يطرح السؤال بشكل حواري عقلي . هل يستوي من يلقى فى النار مع الذى يدخل الجنة آمنا مطمئنا ؟ بالطبع لا مقارنة بينهما ، فليعمل كل إنسان ما يمليه عليه واجب العقل . إن الله عالم بكل مايفعل البشر

فلا مناص من الحساب ولا هروب من الميزان . كل يحصد نتائج عمله فإن كان خيرا فخير وإن كان شرا فشر .

لقد ركز القرآن الكريم على دفع العقل نحو الحوار الداخلي، الحوار الذاتي النابع من المقارنة بين الأشياء المحسوسة وغيرها وكل ذلك ليصل العقل إلى الإيمان ويتحرك نحو اليقين بخالق هذه الأرض وهذه السماء ومابينهما من مخلوقات لاتعد ولاتحصى .

ويقول الله تعالى في سورة النساء « ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب ، قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولاتظلمون فتيلا (٧٧) أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك قل كل من عند الله فمال هؤلاء القوم لايكادون يفقهون حديثا (٧٨) » يخاطب القرآن الكريم عقول هؤلاء الذين ظنوا أن تأجيل القتال هو تأجيل لموتهم مع أن المؤمن بالله يؤمن أن الموت قدر من الله معلوم لديه وقته . فلا تأخير ولاتقديم .

في هاتين الآيتين يدخل الحوار القرآني مع العقل مسألة في غاية الدقة والأهمية .

ودقتها وأهميتها تأتيان من خلال العوامل النفسية لدى الانسان كمخلوق مركب من الخوف وعدم القدرة على معرفة الغيب .

فأكثر الناس يساورهم الظن أن عدم الخوض في معارك قتالية يؤجل موتهم إلى زمن آخر . وعندما يرى الناس عدد القتلى فى المعارك يظنون أنه لولا حدوث القتال لما قتلوا . فلذلك وبسبب ضعف فى الإيمان ظنوا أن تأجيل القتال يعنى تأجيل الموت إنهم يتمنّون أن يؤجلهم الله أو يؤجل القتال حرصا منهم على أن يموتوا بعد عمر طويل على فراشهم .

لكن القرآن الكريم يبين لهم أن الموت قدر من الله ، ففي أي مكان يحلّ الإنسان أو ينزل سيأتيه الموت حتى لو تحصّن في قلعة عالية أو قصر شامخ أو حصن مرتفع فإذا أصابهم خير فرحوا واستبشروا وقالوا هذا من عند الله وإذا أصابهم شر قالوا هو من الرسول أو بسببه. وحقيقة الأمر أن الله الذى خلق الموت والحياة هو الذى يقدر الخير والشر وليس لأحد من البشر ولاحتى الأنبياء دخل فى صنع الخير والشر لأنهما مقدران من الله .

ويستفهم القرآن مستنكرا مال هؤلاء القوم لايحكمون عقولهم ويفهمون

هذا القرآن العظيم فإنهم لو فهموه وتدبروا معانيه لعلموا أن كل شيء من عند الله وبقضائه وقدره .

إن القرآن وهو يحاور هذه العقول الضعيفة فى تقديرها يقرر وعن طريق المنطق العقلي أن الله الذى خلق الإنسان هو الذى يقدر موته ، فلا الإنسان إذا خاض المعارك ميت حتما ولا بقاؤه فى بيته أو على فراشه ينجيه من الموت أو يؤخره . إن الموت من عند الله وإذا جاءت ساعة الموت لايقدر أحد على تأخيرها .

ويقول تعالى فى سورة الجمعة "قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون ٨ "

وهذه الآية خطاب موجه إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - وخطاب لكل من آمن بالله ، لكل مسلم مؤمن موحد . قل يارسول وقل يامؤمن لكل من يلحد ويكفر بالله ، وقل لكل خائف من قدره ومصيره ، إن الموت نهاية كل حي. إنه الموت الذي ينتظركم مهما بلغتم من العمر ولابد أن تلاقوه إن آجلا أو عاجلا وتلك مسألة حتمية يجب أن يسلّم بها كل مخلوق لأن الإنسان سيرد إلى خالقه عالم الغيب والشهادة وستكشف أعمال كل مخلوق أمامه دقيقها وكبيرها قليلها وكثيرها تلك هي سنة الحياة والموت . والله هو الذي خلق الحياة والموت وهو أولى بمعرفة أسرارهما .

ويقول تعالى فى سورة البقرة " كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون ٢٨ "

ويقول فى سورة الحج "وهو الذي أحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم إن الإنسان لكفور ٦٦ " ويقول تعالى في سورة الروم " الله الذى خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم . هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شيء سبحانه وتعالى عما يشركون ٤٠"

ويقول فى سورة الجاثية "وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ماكان حجتهم إلا أن قالوا ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين قل الله يحييكم .ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لاريب فيه ولكن أكثر الناس لا يعلمون" .

لاشك أن تأكيد القرآن على الحياة والموت يأتي من خلال مايشغل الناس بهما فحتى يصل بنا القرآن الكريم إلى الإيمان الحقيقي بالله وبقدرته استخدم نفس الأسلوب الذى يستخدم فى صدم العقل ودعوته إلى الصحو من هذه الغفلة وهذا التراخي .

فالآيات السابقة تؤكد على معجزة الخلق . فالإنسان لم يكن شيئا مذكورا فإنه ميت فى عالم الذر .لقد كان ميتا فأحياه الله من خلال لقاء هذا الحيوان المنوي بالبويضة المؤنثة . وإذا تساءلنا جميعا لو لم يلتقيان هل نحصل على جنين ثم طفل بالطبع لا . فالله سبحانه عندما يخلق الإنسان فإنه .

يخلق بقدرة الله لأنه أساسا فى عالم الأموات . يحيا الانسان ويعيش بعد أن كان ميتا ثم يموت ويعود إلى عالم الغيب فيجمعه الله مع بقية الناس لينال كل جزاءه .

كيف تكفرون بهذا الخالق وكنتم لاشيء يذكر ، كيف تؤمنون بالأصنام فهل تستطيع أن تفعل شيئا فى خلقكم ؟ فسبحان الله العظيم الذى خلق الإنسان من العدم ثم يميته ثم يحييه . هؤلاء الملحدون يتبجحون ويحتجون . إذا كان الله قادر على بعثنا فليبعث آباءنا ، فقل أيّها النبي وقل ياكل مؤمن موحّد، إن الله هو الذي خلقكم وهو الذي يميتكم ولاعودة لميت فى الحياة الدنيا . لأن البعث والنشور هو فى يوم القيامة ، يوم يبعث من فى القبور جميعهم حتى يحاسبوا ويحصد كل زارع نتيجة زرعه . فمن يزرع إيمانا يحصد جنة ومن يزرع كفرا وظلما يحصد جهنم. وهذا هو الجزاء العقلي الذى لايرفضه منطق وعقل ولايرفضه إلا جاهل مجنون .

لقد علمنا القرآن الكريم درسا فى الحياة والموت . فالحياة متاع الغرور ، وهي قصيرة جدا لاسيما حينما ينظر الإنسان فى شيخوخته إليها ألم يرها أنها غفلة كما يقولون ، وهي امتحان يأتيها الإنسان من عالم الغيب ويعيش فيها حتى إذا دنت منيته أدرك أنها كذلك .. امتحان ولاشك .

وعلمنا القرآن الكريم أن الموت آت لا محالة ، وهونهاية الحياة الدنيوية القصيرة،إنه نقلة إلى الآخرة دار المقام ودار الخلود . وقد بين الله سبحانه وتعالى أن الحياة والموت قدر منه عز وجل . وهما برهان قوي على وجوده ووحدانيته وبعد أن بين الله فى عشرات الآيات حقيقة الحياة والموت كيف يكفر الإنسان بربه . لقد خلق الإنسان من نطفة أهي شيئ حيّ يخلق إنسانا من دون إرادة الله ؟ فالذي خلق الإنسان وسوّاه قادر على موته ومن ثم إعادته حيا بقدرته وإرادته .

كل من على الأرض فان حتى الرسل والأنبياء وهذه حقيقة لامفر من الاعتراف بها فلا خلود لإنسان دون آخر ، وكل نفس ذائقة الموت وكل من على الأرض ميت ولايبقى غير وجه الله ذي الجلال والإكرام .

فليعتبر من في قلبه شك . وليعتبر وليتفكر كل عاقل بمغزى هذه الحياة ومغزى هذا الموت .

لقد حاورنا القرآن حوارا طويلا فى آياته الكثيرة وبين لنا من خلال الحجة الإلهية البالغة حدودنا فى ديننا وحدودنا فى قدراتنا ، وكل ذلك ليدلنا على طريق الله وحقيقة الإيمان والسعادة الدنيوية والأخروية .

فالحياة نقلة ، والموت حق ، والقيامة حق ، وكل نفس بما كسبت رهينة .

الـفـصل الـخـامس

القرآن وحوار العقل والعبرة في الأقوام السابقة

يحفل القرآن الكريم بالحديث المتواصل عن الأقوام السابقة وكل ذلك لأجل حفظ الدرس والعبرة والاتعاظ وعدم التغافل لحظة واحدة عن قدرة الخالق عز وجل. وقد كان إعجاز القرآن بالحديث عمّن سبق من أقوام واضحا فى حوار العقل البشري حتى يتسنّى له معرفة خصائص كل قوم ولماذا كانت النتيجة بحقهم على هذه الشاكلة التى أوردها القرآن الكريم وكررها .

إن القرآن العظيم يعلّم دروسا فى التاريخ قبل أن يعرف الناس علم التاريخ . ويعلِّم دروسا فى الحكمة قبل أن يعرف الناس صياغة الفلسفة الحقيقية المبنيَّة على حقائق التاريخ والأفكار التى تمتع بها المفكرون . وحينما يتحدث عن الأقوام السابقة فإنه يترك الباب مفتوحا لكل متسائل أن يسأل ولكل متعجب أن يعجب ، فالمجال واسع حتى أنه ليصل إلى أعماق الزمن وبداياته .

وكثيرون من ضعفاء النفوس يقولون لو كان القرآن يصلح لكل زمان ومكان لحذفت منه الآحاديث عن الأقوام السابقة ! حقيقتهم أنهم جهلة لا يتمتعون بعقلية الحوار المنطقي القائم على الاستدلال والبرهان .

فالقرآن لم يذكرهم عبثا فلينظر كل منا إلى ماأتوا به من أفكار أولا ومن

قدرات جدية ثانيا ومن قدرات فى بناء حضاراتهم ثالثا . فهل أغنى عنهم ذلك وهل جعلهم فى منأى من الدمار . فالذي بنى الأهرامات إنسان جاهل أم ضعيف ؟ حتما هو قوي وعالم ، ولكنه عندما حاول أن يتحدى حكمة الله وناموسه فقد بات لايغنيه هرمه ولاقصره وأصبح عبرة لمن جاء بعده . وهذه العبر تصلح لنا كما صلحت لمن سبقنا فالعلم الحديث وقدرات الإنسان الذكية والكبيرة لا تغنيه عن اللجوء إلى رب العالمين وكم من إعصار حل على أصحاب التكنولوجيا فدمرهم دون أن يفعلوا شيئا ؟

وكم من زلزال وقع وقتل الآلاف دون أن يفعل أصحاب العلم شيئا يحول دون وقوعه .

ورغم أن كل ذلك يسير ضمن قوانين دقيقة إلا أن الإنسان مهما بلغ من علمه فإنه يعجز عن التصدي لمثلها ، كذلك الأقوام السابقة ، فالله الذى يبين طريق الخلاص وطريق السعادة للبشر قادر على أن يجعل العبرة فى الأقوام المعاصرة ، والشواهد على ذلك كثيرة رغم أن الملاحدة لايقرون بالإيمان بالله وقدرته . إن الأمثلة القرآنية الحيّة هي عبرة لكل زمن . ولو عاد الناس كل الناس إلى القرآن لأدركوا معنى تدمير الأقوام السابقة . ولأدركوا الأسباب والنتائج التى تدعوهم للإيمان بربهم . ومامن نتيجة إلا ولها سبب . فالخير سببه

الخير والشر سببه الشر ، ومن يعمر بيتا على ملح لابد أنه سيتهدم حين تهطل الأمطار، ومن يعمر بيتا على أساس متين من الصخر لابد أنه سيصمد أمام المطر وأمام الطبيعة العمياء.

ورغم هذا وذلك فإن القرآن يحاورنا حتى نقتنع. يحاورنا حتى نؤمن وندرك معنى حياتنا وموتنا وندرك أيضا معنى الدنيا والآخرة. ومعنى وجود الرسل والكتب السماوية ومعنى وجود الحساب يوم الحساب.

إن القرآن العظيم الذي يحاورنا دوما لا يريدنا أن نسلّم يقينا إلا بعد أن نقتنع، وطريق القرآن هو طريق الإقناع فلننظر فيه عسى أن يكون لنا درسا فى حياتنا المعاصرة.

١- قوم نوح والجدل بين الكافرين ونبي الله :

يعتمد القصص القرآني فى كافة أشكاله على حوار مستمر وجدل قائم بين الأنبياء وبين أقوامهم وقد تكررت قصص محددة عشرات المرات كقصة سيدنا نوح عليه السلام وقد تكررت القصة أربعين مرة بينما تكررت قصة قوم عاد أربعا وعشرين مرة وقوم ثمود تكررت قصتهم خمسا وعشرين مرة بينما تكررت قصة فرعون إحدى وسبعين مرة وكذلك تكررت قصص بني إسرائيل

عشرات المرات وغيرها من القصص القرآني التي نجدها مبثوثة فى معظم سور القرآن .

وقد تميزت القصة القرآنية التى تتحدث عن الأقوام السابقة بأنها اعتمدت عدة أساليب ، منها الأسلوب الأخباري ومنها أسلوب الحوار والجدل وهذا مانريد بيانه وذلك كون الحوار يعتمد على الجدل العقلي الذى يقوم على حوار الأنبياء مع أقوامهم ولهذا الحوار خصائصه وله غاياته وسنرى هذه الخصائص وتلك الغايات من خلال دراستنا لبعض الآيات وليس جميعها .

يقرل تعالى في سورة هود:

١- «ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه إني لكم نذير مبين (٢٥)»

٢- «أن لاتعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم (٢٦)»

٣- «فقال الملأ الذين كفروا من قومه مانراك إلا بشرا مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذ لنا باديء الرأي ومانرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين (٢٧)»

٤- «قال ياقوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون (٢٨)»

٥- «وياقوم لاأسألكم عليه مالا إن أجري إلا على الله وماأنا بطارد الذين آمنوا إنهم ملاقو ربهم ولكني أراكم قوما تجهلون (٢٩)»

٦- «قالوا يانوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ٣٢»

٧- «قال إنما يأتيكم به الله إن شاء ومأأنتم بمعجزين» (٣٣)

٨- «وهي تجري بهم فى موج كالجبال ونادى نوح ابنه وكان فى معزل يابني اركب معنا ولاتكن مع الكافرين» (٤٢)

٩- «قال سآوي إلى جبل يعصمني من الماء قال لاعاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين» (٤٣)

١٠- «ونادى نوح ربه فقال رب إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين» (٤٥)

١١- «قال يانوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألن ماليس لك به علم إني أعظك أن تكون من الجاهلين» (٤٦)

١٢- «قال رب إني أعوذ بك أن أسألك ماليس لي به علم وإلاّ تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين» (٤٧)

١٣- «قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أُمم ممّن معك وأمم سنمتّعهم ثم يمسّهم منا عذاب أليم» (٤٨)

١٤- «تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ماكنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين» (٤٩)..

لقد نزل القرآن الكريم على سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - فجميع القصص التى حواها كانت موجهة له وللناس كافة حتى تكون درسا للجميع . وفى الآية الرابعة عشرة يتحدث القرآن عن هذه القصص . التى هي من أنباء الغيب فلولا نزول القرآن على النبي - صلى الله عليه وسلم - فليس هناك مصدر آخر يتحدث عن قوم نوح وغيرهم وقد فصل بينهم وبين عصر الرسول - صلى الله عليه وسلم - آلاف السنين .

إن القرآن يحدد قوله ماكنت يامحمد تعلمها لا أنت ولاقومك لولا أوحينا إليك فى هذا القرآن مادار حولهم من وقائع وقصص .

والعبرة فى ذلك كله أن نوحا عليه السلام جادل قومه وحاورهم لكنهم رفضوا الإيمان فكان مصيرهم الغرق فاصبر يامحمد على قومك من قريش واصبر على الكافرين لأن العاقبة لمن صبر ولمن اتقى، فكما صبر نوح على أذى قومه عليك أن تصبر وهذه القصص التى نوحيها إليك هي درس لك وللناس فلتتعلم منها ولتعلم الناس العبرة منها.

نعود للآيات وتحديدا من الآية الأولى وحتى الآية (١٣) فإننا سنرى حوارا طويلا يدور بين نوح وقومه. وهذا الحوار ليس حواراً للجدل فقط إنما فيه من

السؤال والجواب ما يرشد إلى تسلسل حوار النبي نوح عليه السلام مع قومه وصبره على جدلهم . فغاية نوح ليست الجدل بحد ذاته إنما هي إيصال قومه إلى القناعة التامة بالإيمان والوصول إلى طريق الوحدانية والاخلاص لله الواحد الخالق.

لونظرنا فى الآيات لوجدنا ثلاثة مستويات للحوار :

١- المستوى الأول حوار نوح عليه السلام مع قومه .

٢- المستوى الثاني حوار نوح مع ابنه .

٣- المستوى الثالث حوارنوح مع ربه عن طريق الوحي .

ففي المستوى الأول نرى أن الله سبحانه يبعث نوحا لقومه لينذرهم ويرشدهم إلى طريق الله فهو يبين لهم إنذاره يطلب منهم عبادة الله الواحد وعدم الاشراك به ومن ثم شفقته عليهم وخوفه عليهم من عذاب صعب إذا ظلوا على كفرهم .

إذا هو يطلب منهم ماهو لصالحهم وليس لصالحه . الإيمان بالله والخوف من عذابه فجاء جوابهم ليدل على قصر نظرهم والتطلع إلى مصالحهم الذاتية. إننا نراك بشرا مثلنا ولم يتبعك إلا الأذلاء من قومنا وهذا مايخالف منظورنا تجاه

طبيعة المنذر والإندار الذي تقول به .

ويرد عليهم . إنني بشر ولكن الله منّ علي بالمعرفة والحكمة ولا أطلب منكم أجرا على هدايتي لكم .

فالمقياس الذى يريدونه أو الذي تعودوا عليه هو مقياس مادي تجاري ، فنوح عليه السلام يبين لهم أنه لايطلب أجرا جزاء هدايته لهم ورغم ذلك يرفضون، والعقل البشري أي عقل سيخضع لهذا المقياس خضوعا تاما بمعنى أن أي عقل بشري لابد أن يتقبل مقولة النبي نوح لأنه لايطلب أجرا على عمله ، وهذا مايؤكد لهم أن عمله خالص لوجه الله .

ويظهر أن كلام نوح وحواره لهم قد أوقعهم فى حصار واضح لأنهم أدركوا أن جداله لهم سيوصلهم إلى تغيير تفكيرهم . فإذا بهم يعلنون عن إفلاسهم فيطلبون منه أن يبرهن عمليا على صحة قوله لهم وإيضاحه لعقولهم عن الله سبحانه وتعالى وعن الموت والنشور .

ويرد عليهم أن مايطلبونه ليس بيده إنما بقدرة ربه ومشيئته . ولو كانوا يعقلون لآمنوا بما طلب منهم لأنه بين أن الأنبياء هم بشر ولايقدرون على مايختص به ربهم عز وجل .

هذا الحوار الذي دار بين نوح وقومه يوضح أن الدليل والبرهان العقلي كان إلى جانب النبي نوح عليه السلام . ويوضح أن موقف قومه ضعيف إلى درجة كبيرة وطالما أنهم نظروا إلى مصالحهم الذاتية أولا فإنهم لم يؤمنوا لأن مصالح الدنيا غلبت على عقولهم ، فكان أن أغرقهم الله جزاءً كفرهم وعدم تصفية عقولهم من شوائب الكفر .

وعلى المستوى الثاني فإننا نرى حوار نوح مع ابنه . فهو حوار الأب المشفق الرؤوف الرحيم وحوار الابن العاق المغتر المتكبر .

يابني اركب معنا وكن مع المسلمين ولاتكن مع الكافرين لأنهم سيغرقون ورد عليه ابنه بكل قسوة الولد العاق . سآوي إلى جبل ولم يتفوه بكلمة والدي أو أبتي لأنه وبسبب كفره المستمر نسي تماما هذا الرابط القوى بين الإبن وأبيه . ،الفارق كبير بين الإيمان والكفر . ففي الأول الرحمة والحنان والشفقة والاشفاق ، وفي الكفر التكبر والتجبر واللؤم والحقد والجهل .

لا عاصم اليوم من أمر الله . هنا الإيمان الذى ينطق بالحقيقة . فأمر الله أعظم من أن يفكر أحد بالنجاة . وتمت كلمة الله فحال الموج بين نوح وبين ابنه

الذي حاوره. لم يستغرق الحوار طويلاالأن الموج كان قد بدأ يكتسح كل شيء.

وعلى المستوى الثالث من الحوار نرى نوحا يتوجه إلى الله باكيا مشفقا إن ولدي من أهلي كيف يغرق أمام عيني . فهذا حوار النبي المشفق الباكي الذى طغت عاطفة الأبوة عليه فى لحظة من لحظات الرابط الخفي بين حقيقة الأبوة والبنوّة.

فيأتيه الرد. إن ابنك ليس من أهلك، إن عمله شر وكفر وعملك أنت خير وحق فكيف يتقابل الكفر بالإيمان والشر بالحق.

فيصحو نوح النبي من غفلة الحنان والعاطفة ليعود إلى العقل الايماني القوي ليقول غفرانك ربي هو الحق . فاغفرلي نسياني ولا اعتراض على أمرك وأنت ربي ورب العالمين ، وأخيرا أوحي إليه وقيل يانوح اهبط بسلام أنت ومن معك. هؤلاء قومك الذين هم البقية الباقية من قومك. سينقسمون إلى مؤمنين وكافرين وكذلك سنمتع بعضهم ثم نجزي كل إنسان على عمله إن شرا فشر وإن خيرا فخير .

إذا فالخطاب موجه لرسولنا العظيم محمد - صلى الله عليه وسلم - وفيه من الدروس الكثير الكثير :

أولها : النظر فى طبيعة رسالة نوح وهي كرسالة النبي - صلى الله عليه وسلم - تدعوا إلى الوحدانية وعدم الإشراك بالله ولايطلب النبي أجرا عليها .

ثانيا : الحوار العقلي المتواصل مع الكافرين وعدم التوقف عن حوارهم .

ثالثها : الصبر الطويل على كل مايقول الكافرون ويلفقون من حجج واهية يرفضها العقل .

رابعا : إن القرب من النبي والبعد عنه يرتبط بمقياس الايمان والقرب من الله وليس مرتبطا بصلة القرابة والدم .

وهنا: أشياء أخرى تمنح المسلم آفاقا واسعة من المعرفة فى التاريخ المغرق فى القدم فلولا القرآن لما عرفنا من هو نوح ومن هم قومه .

إن هذا الحوار القرآني المعتمد على منطق الحق والوضوح لدى النبي نوح عليه السلام لهو خير دليل وخير برهان على أن الدعوة إلى طريق الله لاتأتي بالعنف والقوة إنما تأتي من خلال الصبر والحكمة فى الدعوة . ومن خلال المنطق الإلهي الذى لا يريد لبشر أن يظلم ويؤخذ بسبب سوء عمله وعدم استخدام عقله استخداما صحيحا واعيا .

- قوم عاد والجدل بينهم وبين النبي هود عليه السلام .

من المعروف وحسب وحسب تسلسل أحداث التاريخ أن قوم عاد الذين بعث لهم النبي هود عليه السلام يأتون بعد قوم نوح فى الترتيب القصصي القرآني ورغم مابين قوم نوح وقوم هود من زمن وأقوام . غير أن تركيز القرآن عليهم يعود إلى كونهم شاهدا مهما على تكذيب الكفار لأنبيائهم وجدلهم معهم . والعبرة من ذلك كما قلنا سابقا تعريف الرسول - عليه الصلاة والسلام - بهم وأخذ الدرس والعبرة لما حل بهم .

وتركيز القرآن الكريم عليهم يأتي من خلال كونهم أقواما معروفة بشأنها فى التاريخ ولها عظمتها وقوتها . وحينما يضرب الله الأمثال من خلال قصصهم فإن ذلك يعني التركيز على الأقوى من الشعوب . فرغم عتّوهم وجبروتهم كانت مصائرهم سيئة بسبب معاداتهم للأنبياء ورفضهم الإيمان بوحدانية الله .

يقول تعالى فى سورة هود : « وإلى عاد أخاهم هودا قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره إن أنتم إلا مفترون (٥٠) ياقوم لاأسألكم عليه أجرا إن أجري إلا على الذى فطرني أفلا تعقلون (٥١) وياقوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قوة إلى قوتكم ولاتتولوا مجرمين (٥٢) قالوا ياهود ماجئتنا ببينة ومانحن بتاركي آلهتنا عن قولك ومانحن لك بمؤمنين (٥٣) إن

نقول إلا اعتراك بعض الهتنا بسوء قال إني أشهد الله واشهدوا أني بريء مما تشركون (٥٤) من دونه فكيدوني جميعا ثم لا تنظرون (٥٥) إني توكلت على الله ربي وربكم مامن دابة إلا هو آخد بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم (٥٦) فإن تولوا فقد أبلغتكم ماأرسلت به إليكم ويستخلف ربي قوما غيركم ولاتضرونه شيئا إن ربي على كل شيء حفيظ (٥٧) ولما جاء زمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ (٥٨) وتلك عاد جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله واتبعوا أمر كل جبار عنيد (٥٩) »

فإذا نظرنا فى الآيات الكريمة السابقة وجدنا أن الحوار يتركز فيها على موقفين ، موقف النبي هود عليه السلام وموقف قومه . ودعوته تقوم على :

١- العودة لله وعبادته وعدم الاشراك به .

٢- عدم طلبه الأجر على دعوته وأجره على الله رب العالمين .

٣- دعوتهم لهم لكي يستغفروا ربهم لما اقترفوه من كفر وإلحاد ودعوتهم للتوبة.

٤- عودتهم إلى الوحدانية تجعل رحمة الله تنصب عليهم ويزيدهم الله قوة إلى قوتهم. أما ردهم فيقوم على :

١- عدم الاقتناع بما جاء به من دعوة لوحدانية الله .

٢- تصلبهم بموقفهم وتمسكهم بآلهتهم التي لاتضر ولاتنفع .

٣- اعتقادهم الخرافي أن آلهتهم ستصيب هودا بالسوء .

ورده عليهم يتخلص ب :

١- توكله على الله وإيمانه بأن كل مخلوق لابد ميت .

٢- إن تولوا فقد بلغ رسالته .

٣- إنذارهم أخيرا بأنهم إن لم يؤمنوا بالله سيدمرهم ربهم ويأتي بقوم غيرهم.

ورغم هذا الحوار القائم على الجدل بين الحق والباطل ، وبين العقل والجهل فإن هؤلاء ظلوا على كفرهم فكانت النتيجة أن دمرهم الله ونجّى نبيّه هودا . وهذا أمر طبيعي فلكل شر نهاية هي شر بذاتها ولكل خير نهاية هي خير بنفسها .

قوم ثمود وجدالهم مع النبي صالح عليه السلام.

ويقول تعالى في سورة هود أيضا : «وإلى ثمود أخاهم صالحا قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربي قريب مجيب (٦١) قالوا ياصالح قد كنت فينا مرجوًا قبل هذا أتنهانا أن نعبد مايعبد آباؤنا وإننا لفي شك مما تدعونا إليه مريب (٦٢) قال ياقوم أرأيتم إن كنت على بيّنة من ربي وأتاني منه رحمة فمن ينصرني من الله إن عصيته فما تزيدونني غير تخسير (٦٣) وياقوم هذه ناقة الله لكم آية

فذروها تأكل في أرض الله ولاتمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب (٦٤) فعقروها فقال تمتعوا فى داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب (٦٥) فلما جاء أمرنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزي يومئذ إن ربك هوالقوي العزيز (٦٦) وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين (٦٧) »

وطالما أن الأنبياء جميعا بعثوا لغاية واحدة وهي هداية شعوب الأرض فإن ذلك يعني أن منبعهم واحد ومرجعهم فى دعواهم واحد هو الله سبحانه وتعالى .

فعلى نفس الشاكلة يحاور صالح عليه السلام قومه ويجادلهم لأجل إنقاذ من ضلالهم وإشراكهم ويبين حجته العقلية التي لاغبار على صحتها .

فهو يدعوهم لعبادة الله الواحد الذى من أهم البراهين على وحدانيته خلقهم من الأرض وتهيئتها لهم حتى يستعمروها ويشيدوا عليها حضارتهم من قصور فخمة وبيوت صخرية قوية . يدعوهم إلى العودة إلى ربهم والاستغفار والتوبة .

فكان ردهم عليه . إننا على ماعبد آباؤنا ، ودعواك مشكوك فيها ونحن مرتابون منها ويرد عليهم إن الله سبحانه هوالذي يمنح الرحمة والحكمة من يريد ولاناصر سواه ويطلب منهم أن يفسحوا المجال للناقة التى بعثها الله لمصلحتهم كي ترعى فى الأرض ويستفيدوا من حليبها ويؤكد حواره على أن

الناقة هي ناقة الله وهي معجزة مادية يرونها بأعينهم تنتج مالم تنتجه أنثى حيوان على الأرض . ورغم قناعتهم بذلك فإنه حذرهم إن هم أصابوها بسوء فسوف يعاقبهم الله أشد العقاب .

ورغم التحذير ورغم الحجة والبرهان ذبحوها واعتدوا على حدود الله سبحانه فكان مصيرهم الدمار ونجى الله صالحا والذين آمنوا معه .

فالعبرة من هذا الحوار تأتي من خلال إيضاح النبي صالح لدعوته التى ليس فيها خسران ولادمار ومن خلال تمسكهم بضلالهم وفعلهم الأسباب التى أوصلتهم إلى النهاية السيئة من دمار وخذلان .

إن هذه العبرة التى يكتشفها الانسان العاقل دون تعقيد فى الأمور هي نفسها العبرة التى أراد القرآن من ورائها إيضاح طريق الخير والشر لمن كفروا برسالة النبي محمد - صلى الله عليه وسلم - . فإذا كانوا فعلا عاقلين فما عليهم إلا أخذ العبرة من أحداث جرت للأقوام السابقة التى كذبت أنبياءها ورفضت بكل عناد وجهل منطق العقل ومنطق الايمان الذى ينقذهم من الضلال أولا ومن عقاب الله ثانيا .

إبراهيم عليه السلام

ولعلنا ونحن نعرف قصة إبراهيم عليه السلام نقف طويلا أمام الحوار الذي دار بينه وبين قومه ولعله من أيضا من أطول أنواع الحوارات التى نراها فى القرآن الكريم. لقد ورد ذكر النبي إبراهيم مرات عدة فى كتاب الله العظيم غير أن الجدل الذى قام بين النبى وبين قومه فى الحوار الكبير بينه وبينهم فى سورة الأنبياء.

يقول تعالى فى سورة الأنبياء:

١- «ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين (٥١) إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون» (٥٢).

٢- «قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين» (٥٣).

٣- «قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين» (٥٤).

٤- «قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين» (٥٥).

٥- «قال بل ربكم رب السموات والأرض الذى فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين» (٥٦).

«وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين (٥٧) فجعلهم جذاذا إلا كبيرا لهم لعلهم إليه يرجعون» (٥٨).

٦- «قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين» (٥٩).

٧- «قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم» (٦٠).

٨- «قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون» (٦١).

٩- «قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا ياإبراهيم» (٦٢).

١٠- «قال بل فعلها كبيرهم هذا فسألوهم إن كانوا ينطقون» (٦٣).

١١- «فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون» (٦٤).

١٢- «ثم نكسوا على رؤوسهم لقد علمت ماهؤلاء ينطقون» (٦٥).

١٣- «قال أفتعبدون من دون الله مالاينفعكم شيئا ولايضركم (٦٦) أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون» (٦٧).

١٤- «قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين» (٦٨).

١٥- «قلنا يانار كوني بردا وسلاما على إبراهيم (٦٩) وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخسرين» (٧٠).

فنلاحظ فى هذا الحوار القرآني وجهين متناقضين وجه يمثل إبراهيم عليه السلام ووجه يمثل أباه وقومه . فالوجه الأول لهذا الحوار يقوم على المنطق والحجة العقلية التى لاشك فى صحتها ، فى الطرف الابراهيمي دعوة للتخلص من الجهل والعودة إلى جادة الصواب، وفى الطرف المشرك تعنّت وانتصار للجهل وعبادة الأصنام .

سؤال منطقي يبدأ به النبي إبراهيم عليه السلام ماهذه التماثيل التي أنتم لها أنتم عاكفون ؟ إذا هو من البداية يعطي هذه المعبودات حقها الذى تستحقه إنها تماثيل لا أكثر ولاأقل وليست هي آلهة أو إله كما يزعمون ويزعم الجاهلون .

ويأتي جوابهم جواب من ترك الحسابات العقلية واتبع التقليد الأعمى لقد وجدناآباءنا لها عابدين فعبدناها سيرا على خطى الأولين من أجدادنا .

وطالما أن حجة العقل والمنطق إلى جانب النبي إبراهيم عليه السلام فإنه سخر منهم وأراد أن يرشدهم إلى العقل . إن آباءكم .. إنكم في ضلال واضح . لأنكم تعبدون أصناما لا تنفع ولاتضر .

وهم في ضلالهم يجادلون أجئتنا بالحق أم أنك تمزح ، وكأنّ قول النبي إبراهيم عليه السلام هو كلام المازح اللاعب فهم على جهلهم يعتقدون أنهم على صواب ومادعوة إبراهيم لهم على ذلك شاهد مؤمن .

وكان جواب إبراهيم جديا مثل دعوته : إن ربكم هو رب السموات والأرض خلقهن وأنا على ذلك شاهد مؤمن .

لم يتوقف إبراهيم عليه السلام عند إيضاح جهلهم وطالما أنه مكلف من رب العالمين بمحاربة الجهل والاشراك بالله أضمر فى نفسه فعل مايمكن فعله حتى يبرهن على صحة حواره . فدمّر الأصنام وترك كبيرهم وعلق فى رقبته الفأس ، ودخلوا معبدهم فوجدوا الأصنام نتفا من الحجارة . تحاوروا فيما بينهم

حوار الغاضب الجاهل فتعرفوا على من فعل بآلهتهم مافعل . وجئ بإبراهيم يسألونه ليتأكدوا هل أنت دمرت الأصنام .

وبكل سخرية بل فعله هذا الكبير ألا ترون الفأس معه ؟ ولجهلهم ظنوا ذلك ولكن للعقل صولات لابدأن يظهر فيها .

لقد علمت أنهم لا ينطقون .

وهنا يبلغ الحوار أشده بسبب هذه المفارقة الغريبة . طالما أنكم اعترفتم أنهم لاينطقون ولايستطيعون الدفاع عن أنفسهم فلماذا أنتم لاتزالون على عقيدتكم ؟ إن العاقل أي عاقل يرفض هذا المنطق الأعوج .

لكن إبراهيم أوقف حيرتهم الجاهلة وقال كيف إذا تعبدون من دون الله هذه الحجارة والتماثيل وأنتم اعترفتم أنها لا تنفع ولاتضر حتى نفسها ؟

إذا ادركوا أن إبراهيم عليه السلام هو الذي دمر هذه الأصنام . ورغم الحوار العقلي والمنطق السليم والأدلة والبراهين على وحدانية الله ورغم دعوته للعودة إلى العقل السليم رفضوا العدول عن عقائدهم وعماهم حقدهم ومصالحهم الدنيوية المغشوشة .

فأرادوا كيدا فقيّدوه وألقوه في النار، وحتى يكون لمنطقه العقلى دعم وقوة جاءت المعجزة الالهية ، أمر الله النار أن تكون بردا وسلاما عليه وخرج منها معافى لم يمسّه منها شيء، ورغم ذلك فهل يؤمنون ؟ إن الجهل الذى سيطر

على عقولهم جعلها سوداء مظلة لاتحب النور ولاتحب الإيمان فظلوا على جهلهم مما جعل إبراهيم عليه السلام أن ينفذ وعد ربه ويرحل عنهم، نلاحظ أن الحوار القرآني فى هذه الآيات جاء مفصلا ليرشدنا إلى طريقة الحوار مع الذين يلحدون ويشركون بالله . فاستدراج الطرف الآخر لطريق الإيمان ليس استدراجا عاطفياً ومخادعا إنه استدراج بالعقل لأنه يبدأ هادئا ويتصاعد حتى يصل إلى الغاية «أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون» إن هذه الآية أوصلت المشركين إلى الصدمة حتى يصحو العقل من غفلته ويسترشد بالمنطق الموصل إلى طريق الاطمئنان والتنّور والهداية .

ولنا فى سورة طه مثال آخر على الحوار القرآني الذي يعتمد على بيان موقفين متناقضين يبين كل موقف حجته . فالأول يعتمد الحجة المنطقية العقلية والآخر يعتمد الحجة الجاهلة رغم بيان صحة حجة الطرف الأول :

يقول تعالى في سورة طه :

«اذهبا إلى فرعون إنه طغى (٤٣) فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى (٤٤) قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى (٤٥) قال لاتخافا إنني معكما أسمع وأرى (٤٦) فأتياه فقولا إنا رسولا ربك فأرسل معنا بنى إسرائيل ولاتعذبهم قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى (٤٧) إنا قد أوحي إلينا أن العذاب على من كذب وتولى (٤٨).

قال فمن ربكما يا موسى (٤٩)

قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى (٥٠)

قال فما بال القرون الأولى (٥١)

قال علمها عند ربى في كتاب لايضل ربي ولاينسى (٥٢) الذي جعل لكم الأرض مهادا وسلك لكم فيها سبلا وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى (٥٣) كلوا وارعو أنعامك إن في ذلك لآيات لأولى النهى (٥٤) منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى (٥٥) ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى (٥٦)

قال أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى (٥٧) فلنأتينك بسحر مثله فاجعل بيننا وبينك موعدا لا نخلفه نحن ولا أنت مكانا سوى (٥٨)

قال موعدكم يوم الزينة أن يحشر الناس ضحى (٥٩) فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى (٦٠)

قال لهم موسى ويلكم لا تفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى (٦١) فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى (٦٢) قالوا إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى (٦٣) فأجمعوا كيدكم ثم ائتوا صفا وقد أفلح اليوم من استعلى (٦٤) قالوا ياموسى إما أن تلقي وإما أن نكون أول من ألقى قال بل ألقوا فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه

من سحرهم أنها تسعى (٦٦) فأوجس في نفسه خيفة موسى (٦٧) قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى (٦٨) وألق ما فى يمينك تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولايفلح الساحر حيث أتى (٦٩) فألقى السحرة سجدا قالوا آمنا برب هارون وموسى (٧٠) قال آمنتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الذي علمكم السحر فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم فى جذوع النخل ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى (٧١).

قالوا لن نؤثرك على ماجاءنا من البينات والذي فطرنا فاقض ماأنت قاض إنما تقضي هذه الحياة الدنيا (٧٢) إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وماأكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى» (٧٣)

في هذه الآيات الكريمة يعلم القرآن الكريم كيفية التعامل بين المؤمن والكافر خلال حوار طويل غايته الهداية وإيضاح طريق الإيمان .

تبدأ الآيات بارشاد موسى إلى الطريق فى الحوار اذهبا إلى فرعون إنه ضلّ وقولا له قولا ليّنا لعله يتذكر أو يخشى ، إذا فالأسلوب الحواري الذى يريد الله من ورائه إقناع فرعون هو الأسلوب المعتمد على لغة سمحة ليّنة ليست فيها فظاظة رغم علم الله المسبق أن فرعون لن يهتدي إلا أن واجب النبي أي نبي اتباع أسلوب الحكمة والموعظة الحسنة فى الدعوة والهداية .

قالا : ربنا إننا نخاف أن يتكبر أكثر من تكبره إذا ماحاورناه باللين ويشعر بأننا فى موقف ضعيف أمامه فيطغى علينا .

ويطمئنهما الله سبحانه بأن لايخافا فهو سير عى دعوتهما.

ويبدأ الحوار بين قمة الإيمان وقمة الكفر .

الإيمان يقدم براهينه على وحدانية الله والكفر يسأل متكبرا.

لقد جاء موسى الممثل للايمان بآية برهانا على صحة دعوته مما جعل فرعون يسأل من ربكما ياموسى ؟

يأتي الجواب المحكم ، الجواب العقلى المنطقي : ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه إنه الله الذي خلق العباد وسوى البشر وهداهم إلى طريق النور ودلهم على طريق نجاتهم من عقاب لابد آت .

ويريد الكفر أن يوقع الايمان فى حيرة الشك . فما بال القرون الوسطى، ما بال من ذهبوا لم يعودوا ولم يبعثوا ؟

ويأتي جواب الايمان إن علمها عند ربي. إذا فما هو من اختصاص الله لا يختص به بشر وعلم من سبق من شعوب هو من اختصاص الخالق وليس من اختصاص البشرحتى ولو كانوا أنبياء .

وحتى تكون حجة الايمان قوية لاتهتز أمام الكفر والطغيان فقد أوضح موسى عليه السلام أن الله سبحانه هو الذى جعل الأرض مهادا لبني البشر

يسيرون فيها حسبما يريدون وهوالله الذي أنزل ماء من السماء فأحيا به البشر والمخلوقات والأرض والأنعام حتى يعيش الانسان بنعيم لاينقص عليه من الانعام شيء .

وهنا يتضح أن وراء حجة الإيمان معاني كثيرة وأسئلة كثيرة أيضا ، فالله هو الذي جعل الأرض مهادا وأنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض فهل أنت بقادر يافرعون على فعل شيء من هذا القبيل ؟ إنه حوار هادئ ولكنه يحوي التحدي والاعجاز فهذه الأرض هي مرجع الانسان منها خلقه الله وإليها يعيده ، فإذا كان سؤال فرعون مابال القرون الأولى لاتعود ؟ فإن الجواب يأتي من خلال هذه الآية فكل القرون الأولى وكل ماهو حي وكل ما هو سيخلق إلا أنشأه الله من هذه الأرض وإليها سوف يعيده حتى يحين أمر الله فتقوم القيامة ويخضع الناس جميعا للحساب .

ويعجز فرعون أمام هذه الحجج الواقعية المنطقية والبراهين التي لابد للعقل أن يصغر أمامها . وكل عات متكبر جبار لابد أن يلجأ إلى الهروب نحو أسلوب آخر من الصراع الجدلي مع خصمه وهذا مافعله فرعون عندما اتهم موسى عليه السلام بأنه ساحر لاسيما عندما رأى آية العصا وهي تنقلب إلى ثعبان وآية يَدُ موسى التي أخرجها من جيبه وهي تشع نورا.

إذا فرغم الحوار العقلي مع فرعون أبي إلا أن يظل على كفره ورغم الآيات المعجزات التي لايستطيع عليها بشر ظل على تحديه وكفره وجبروته .

وطالما أن التربية النبوية الإيمانية علمت موسى عليه السلام أن يصبر ويظل على هدوئه وكلامه الليّن فقد وافق على أن يستمر الصراع بكل ثقة وطمأنينة لآنه يستند على خلفية الايمان بالله التي لاتهتز ولاتفتر .

وعندما جمع فرعون عتاته من السحرة أنذرهم موسى عليه السلام وكشف وفضح زيف ماسيفعلون لأنه كان على يقين من صحة دعواه ، وكان لحوار موسى الكاشف الفاضح لخداعهم أثره في انقسامهم إلى مستمر في مناصرة فرعون وإلى متراجع عن خداعه وكذبه ، لقد كان لوضوح الإيمان لدى موسى عليه السلام أثره البالغ في زعزعة صف الكفر والخداع . وغاية المؤمن دوما فضح الأباطيل والتدجيل وزعزعة الكفر طالما هو موجود على وجه الأرض .

ووسوس أئمة الكفر فى عقول الذين تزعزعت إرادتهم وكذبوا حين قالوا إن موسى وأخاه يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بهذا السحر فلا تصدقوا دعواهم .

وعندما وقع التحدي انتصر موسى لأن معجزته إلهية وسقط كيد السحرة لأنه خداع وكذب وهنا يصل بنا القرآن إلى الغاية من هذا الصراع الطويل وهذا

الجدل بين صف الإيمان وصف الكفر .

يدرك السحرة أن جدلهم عقيم وأن سحرهم هو خداع وتزييف ويرون حقيقة ماالموسى من براهين حقيقية فيخرون معترفين بالحق . ولايهابون فرعون وعذابه الدنيوى فينقلبون إلى صف الإيمان لأنه صف المنطق والعقل والحقيقة لاصف الجهل والكذب . ورغم تهديد فرعون ظلوا صامدين لأنهم تيقنوا من حقيقة الإيمان وحقيقة الموقف الواضح لدى النبي عليه السلام . وهم يجادلون فرعون يعترفون أنه أجبرهم على السحر وحقيقة الإيمان تدحض زعم الخداع والسحر فلذلك ظلوا صامدين أمام تهديد فرعون لأنهم كشفوا حقيقة الموقفين فأيهما أعقل وأصح وأنجى .

ونستطيع من خلال هذه الآيات الكريمة أن نرى مستويات للحوار تهدأ اللغة فيها ثم تضطرب . وهذا عائد لطبيعة الموقف المتغير من لحظة إلى أخرى .

فخطاب موسى عليه السلام لفرعون كان خطابا ليّنا هادئًا ولهذا السبب وجدناه يضع الغاية نصب عينيه وهي هداية فرعون . لقد عرفه من هو ربه وماهي آثار خلقه . لكن الحوار الذي استخدمه موسى مع السحرة كان فيه التهديد والوعيد والفضح لأنه عليه السلام يعلم أن ما سيفعلونه هو كذب وخداع

وعندما يعترف السحرة ومن لّف لفهم بحقيقة المعجزة الالهية يعلوا صخب الحوار لاسيما الصادر من قبل فرعون ففيه كل التهديد و الوعيد بالقتل والصلب وما إلى ذلك ورغم هذا التهديد القاسي فإن حوار السحرة كان حوار المدرك أن العزة لله ، وما هذه الدنيا إلا دا ر فناء فليفعل فرعون مايفعل . إننا نلمس في موقف السحرة أخيرا موقف التسليم لقضاء الله الذى آمنوا به وأدركوا من خلال معجزاته أنه الخالق القادر على كل شيء وما فرعون إلا مدع كذاب .

وبالطبع فإننا نعرف جميعا ومن خلال قرآننا العظيم ماهي نهاية فرعون ولقد أغرقه الله وجنوده بعد أن عذبه فى الدنيا عذابات كثيرة . ونهايته هى حتما نهاية كل مخالف لمنطق الحق والعقل والحقيقة .

وفى القرآن الكريم قصص الأنبياء المرسلين جميعا وقصص أنبياء آخرين جاء بها القرآن كأمثلة تربوية تعليمية يراد من ورائها تعليم النبي -صلى الله عليه وسلم - وتهذيب المسلمين وتعليمهم وتربيتهم . ففى قصة شعيب عليه السلام نرى حوار العقل مع الجاهلين ومع الكافرين ، وفى قصص أخرى كذلك . والغاية من ورائها جميعها التعليم وأخذ العبرة وكل مسلم موحّد منوط به أن يخاطب الكافرين والجاهلين من خلال العقل والحوار المنطقي الهادىء حتى يصل

إلى الغاية المرجوّة من الدعوة إلى الإيمان وعبادة الله الواحد القهار وباعتبار أن القرآن الكريم نزل على نبينا محمد – صلى اله عليه وسلم – فإن المقصود بالتربية والتعليم هم اتباع هذا الدين الموحّد هم المسلمون الذين اتخدوا القرآن دستورا حياتيا كاملا ، وباعتبار أن الإنسان ذو طبيعة مزدوجة عقلية ووجدانية فإنه قابل للحوار مهما طال معه الجدل وبسبب كون الحوار القرآني قائما على المنطق والعقل فإنه مع المسلم سلاحا لا يقتل ولا يؤذي بل يشفي من أمراض الجهل ويحيي النفوس والقلوب التى جهلت أو مرضت . ولولا هذه الحكمة ولولا الكلمة اللينة الطيبة التى دعا لها القرآن الكريم لما دخل الناس الاسلام زرافات ووحدانا ولما عمت كلمة التوحيد أصقاع الأرض وبقاع العالم البعيدة .

إن حوار القرآن العقلي هو الذي يتناسب بشكل طبيعي مع طبيعة الإنسان الواعي الذى يريد دوما أن يبحث عن الحقيقة حتى يصل إلى قناعة ترضي ظمأ عقله ونفسه وقلبه وبالتالي يصل إلى سعادة العقل رالروح والجسد فى الدنيا والآخرة .

الفصل السادس

القرآن وحوار العقل حول الآخرة والجنة والنار

في فصل سابق نظرنا في القرآن وحوار العقل حول الحياة والموت وقد يشكل على المرء بعض التداخل الواقع بين الدنيا والآخرة من جهة وبين الحياة والموت من جهة أخرى ، لكننا لوعدنا إلى ماسبق لوجدنا أن الحوار القرآني فى الحياة والموت يختلف تماما عن الحوار فى مسألة الآخرة حيث الحساب ر العقاب والجنة والنار . وباعتبار أن تداخلاً قويا يقع بين الدنيا والحياة فإننا سنحاول إلقاء الضوء على الآخرة والجنة والنار وكيف جاء الحوار القرآني حولها . وقد حفل كتاب الله الكريم بالحديث عن الجنة والنار فى أسلوب حواري عقلي واضح لما لهما من أهمية فى عقل الانسان الذى يبحث ويريد أن يبحث عن حقائق الأمور وجواهرها لاسيما تلك المتعلقة بالإيمان وأسسه الاسلامية .

من المسلّم به أن الإيمان باليوم الآخر هو أحد أركان الإيمان فمن لا يؤمن بيوم القيامة لايكون مؤمنا لأن الإيمان كل متكامل ، لا يؤمن المؤمن بالله دون الإيمان بالكتب والرسل والملائكة واليوم الآخر .

يقول تعالى فى سورة (ق) : « وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ماكنت منه تحيد (١٩) » ونفخ فى الصور ذلك يوم الوعيد (٢٠) وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد (٢١) لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد

(٢٢) وقال قرينه هذا ما لدي عتيد (٢٣) ألقيا فى جهنم كل كفار عنيد (٢٤) مناع للخير معتد مريب (٢٥) الذى جعل مع الله إلها آخر فألقياه فى العذاب الشديد (٢٦) قال قرينه ربنا ما أطغيته ولكن كان في ضلال بعيد (٢٧) قال لا تختصموا لدي وقد قدمت إليكم بالوعيد (٢٨) مايبدل القول لدي وما أنا بظلام للعبيد (٢٩) يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد (٣٠) وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد (٣١) هذا ماتوعدون لكل أواب حفيظ (٣٢) من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب (٣٣) ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود (٣٤) »

في بداية سورة (ق) يقول ربنا عز وجل : « ق والقرآن المجيد (١) بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب (٢) أإذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد (٣) »

إذا فالكافرون ينكرون أن يعود البشر بعد الموت وقد أنذرهم القرآن الكريم بذلك، من هذا فإن السورة بأكملها حوار مع البشر ر لاسيما هؤلاء الذين لا يصدقون كلام الله وعندما نصل الآية (١٩) نرى الرد واضحا لمن أنكر وكفر . (وجاءت سكرة الموت بالحق)، جاءت شدة الموت التى تغشى الناس وتغلب على قلوبهم . إن الموت حقا يراه الانسان بعينيه فهو ليس غائبا أوحلما إنما هو حقيقة

دنيوية يراها كافة من خلقهم الرحمن، وهنا يتجلى الخطاب القرآني للإنسان بقوله (ذلك ماكنت منه تحيد) أيها الانسان هذا هو الموت الذي لا تستطيع إنكاره إنه الموت الذى كنت تحاول أن تنساه أوتتناساه وتشك فى حقيقته فهل من محيد عنه ؟

فإذا متّ أيها المنكر للموت والبعث فإن الله سبحانه يأمر أن ينفخ فى الصور فيموت من بقي من البشر على وجه الأرض ثم ينفخ مرة أخرى فيبعث الناس جميعا مندهشين مبهوتين لهول ماسمعوا ولشدة ما رأوا . وتأتي كل نفس معها ملك يسوقها إلى يوم الحشر وملك اخر يشهد على ماعمل صاحبها من أعمال فى الدنيا .

لقد كنت أيها الإنسان فى غفلة، فهذه الآخرة أيقظتك من غفلتك ورفعت الحجب الكثيفة عن تناسيك ونسيانك فها هو بصرك ثابت ترى حقيقة المآل وحقيقة ماكنت تنكره لقد أضلك الشيطان وأعدّك حتى تدخل جهنم بإغوائه وفتنته. وهاأنت تدخل جهنم جزاء وفاقا لما قدمت من عمل، إن جهنم أعدت لكل معاند عنيد معرض عن الحق لايقبل النصح الحق ولا كلام الحق، أتدري أيها الإنسان لماذا أنت فى هذه الحال بالطبع فالانسان لن يستطيع الجواب من هول العذاب والصدمة ولكن الله يذكره عن طريق ملائكته. لقد كنت منّاع

للخير، مناع للزكاة ولكل حق وجب عليك ومناع للاسلام الذي هو دين الحق، وقد أشركت بالله وجعلت معه إلها آخر فعبدته .

ويدخل الحوار منحى آخر حيث يتحدث الشيطان لينجىء نفسه ويتخلص من أعمال صاحبه الذى أشرك بالله ومنع الخير . قال قرينه الشيطان إنني ما أوقعته فى الطغيان لكنه طغى واختار الضلالة على الهدى . ونستشف من ذالك أن الكافرين عندما يلقون فى جهنم يرمون بأوزارهم على الشيطان . فيقول واحدهم ربي لقد أطغاني الشيطان فيقول الشيطان ربنا ما أطغيته وما أضللته وما أغويته لكنه هو نفسه كان فى ضلال بعيد عن الرشد والنصح والحق والصواب .

وبينما يتحاور الكافر والشيطان يخاطبهم الله لم تتخاصمون لاتختصموا لدي ولاتقدموا أعذاركم إنكم لستم فى الدنيا إنما أنتم فى دار الجزاء وموقف الحساب فلا فائدة فى اختصامكم ولا طائل من ورائه وقد قدمت إليكم بالوعيد ووعدتكم بعذابي وأنذرتكم عقابي فى كتبي وعلى ألسنة الأنبياء والرسل فما تركت لكم حجة تحتجون بها . إن كلمتي فى العذاب والجزاء والحساب لاتتغير ولست أظلم العبيد وما أنا بظلام لهم إنني لن أعذب من هو مؤمن لم يقترف الآثام فى دنياه.

وتحقيق لوعده سبحانه وتعالى يقول لخهنم هل امتلأت وبالطبع فإن السؤال هو على سبيل التصديق لخبره والتحقيق لوعده والتقريع للكفار والمشركين والتنبيه لجميع عباده . إنه القادر على انطاق النار والجنة فها هي ترد إنني أسع المزيد من هؤلاء الضالين .

وهاهي الجنة أحضرت للمؤمنين وهيئت لهم لأنهم اجتنبوا المعاصي وآمنوا بالله حق إيمانه . إن هذه الجنة وعد من الله وعدهم بها فى كتبه وعلى ألسنة رسله وأنبيائه . وإنها تصديق لذلك الوعد و الله لن يخلف وعده . لقد أعد الجنة لهم لأنهم توّابون خائفون مستغفرون فى سرهم وعلنهم فى خلواتهم ومجتمعاتهم ، هذه هي الجنة وتلك هي النار . فليتحاور الكافر وشيطانه لا محيد عن يوم تبيض منه رؤوس الأطفال إنه يوم الهول العظيم يوم القيامة الذى تجزى فيه كل نفس بما عملت .

ويقول تعالى في سورة الحديد «يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم (١٢) يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظروانا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا فضرب بينهم

بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب (١٣) ينادونهم ألم نكن معكم قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرّتكم الأماني حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور (١٤) فاليوم لايؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا مأواكم النار هي مولاكم وبئس المصير (١٥) ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولايكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون (١٦) »

يأخذ الحوار القرآني هنا منحًى آخر حيث الموقف على الصراط المستقيم وحيث الجميع فى يوم الحساب ، المؤمنون والكافرون ، المؤمنون يسيرون ساعين إلى الجنة ونورهم يسير أمامهم هاديا دالاً على ما قدموا من أعمال حسنة فى الدنيا ، إنه مصير ولنعم المصير، نور يجلل المؤمنين وهم يسيرون على طريق الصراط وتحفهم الملائكة بالبشرى من كل جانب ادخلوا الجنة التى وعدتم بها إنكم تستحقون هذا الفوز العظيم، وينظر الكافرون إلى المؤمنين باكين نادمين متحسرين ويقولون لهم انظرونا وتمهلوا فى سيركم حتى نأخذ من نوركم شيئا نستضيء به فيلتفت المؤمنون إليهم ويقولون لهم بكل سخرية واستهزاء عودوا إلى دنياكم لتعملوا خيراً مثل ماعملنا، وهيهات وهيهات كيف يعود الناس وهم الآن فى يوم الحساب، عودوا أدراجكم إن استطعتم فليس لكم عندنا نور، ويعود

الكافرون فلا يجدون لانورا ولاهديا. فيعودون ليتحدثوا مع المؤمنين ويرجونهم، لكن الله سبحانه يجعل حاجزا بين الجنة والنار يجعل سورا عظيما من بداخله هو جنة ونعيم ومن فى خارجه هو فى جحيم ونار، وبكل إشفاق وحزن وخيبة أمل ينادي الكافرون على المؤمنين من وراء هذا الحاجز العظيم أن يشهدوا أمام رب العالمين أنهم كانوا معهم يصلّون. فيجيبهم أصحاب الإيمان : نعم لقد كنتم معنا فى الدنيا ولكن أهلكتم أنفسكم بالنفاق وسخرتموها فى المعاصي والشهوات وعاديتم النبي والمسلمين وشككتم بنبوته وغرتكم الأباطيل وتخيلتم دوما القضاء على النبي والاسلام . وتخيلتم مرة أخرى أنكم ستدخلون الجنة بلا حساب أو عمل . لقد بقيتم على ضلالكم حتى جاء يوم الوعيد جاءكم الموت وحل ماحل بكم من المقت والسخط والوبال . وبقيتم على ضلالكم وعدائكم حتى استطاع الشيطان أن يدخلكم النار التى تستحقون . لقد خدعكم ومناكم بالمغفرة ولكن الله سبحانه بين لكم طريق الجنة وطريق النار ، ولكنكم لسوء حظكم طمعتم بالجنة ولم تعملوا وتقدموا فى الدنيا مايؤهلكم لدخول جنات النعيم .

في هذا الحوار بين المؤمنين والمنافقين بيان الأسباب التى أوصلت الطرفين إلى الجنة والنار ولاشك أن لكل سبب منطقه العقلي ولكل حوار مؤهلاته التي

تنبع من حقيقة موقفه السابق وموقفه اللاحق . فالمؤمنون يوضحون للمنافقين الطريق الذى سلكوه حتى وصلوا إلى ماوصلوا إليه، والمنافقون وهم فى هذا الموقف البائس يحاورون المؤمنين وليس فى أيديهم أي سبب ليشفق عليهم ربهم ويشهد لهم المؤمنون بالصلاح .

إذا كل موقف له حواره وكل حوار ينم عن موقف يناسبه .

وفي سورة الأعراف نجد الحوار بين أصحاب النعيم وأصحاب الجحيم ولكن فى هذه المرة يكون كل منهم قد استقر فى مكانه الذى يستحقه بينما نرى فى الآيات السابقة من سورة الحديد أن الجميع مايزالون على الطريق إلى الجنة والنار فلننظر إلى هذا الحوار الذى بين أصحاب الجنة من المؤمنين وأصحاب النار من الكافرين :

يقول تعالى فى سورة الأعراف : «ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربنّا حقا فهل وجدتم ماوعد ربكم حقا قالوا نعم فأذّن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا وهم بالآخرة كافرون (٤٥) وبينهما حجاب وعلى الاعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم ونادوا أصحاب الجنة أن سلام عليكم لم يدخلوها وهم يطمعون (٤٦)، وإذا صرفت

أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا ربنا لاتجعلنا مع القوم الظالمين (٤٧) ونادى أصحاب الأعراف رجالا يعرفونهم بسيماهم قالوا ما أغنى عنكم جمعكم وماكنتم تستكبرون (٤٨) أهؤلاء الذين أقسمتم لاينالهم الله برحمة ادخلوا الجنة لاخوف عليكم ولا أنتم تحزنون (٤٩) ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله قالوآ إن الله حرّمهما على الكافرين (٥٠) الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعبا وغرتهم الحياة الدنيا فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا وما كانوا بآياتنا يجحدون » (٥١)

تبدأ الآيات الكريمة بالحوار بين أهل الجنة وأهل النار وفيه إيضاح قرآني لسبب دخول هؤلاء إلى النعيم وهؤلاء إلى الجحيم وهذا الايضاح هوالذي يبين للعقل الانساني الأسباب والنتائج . وبطبيعة الحال فإن هذا الحوار نقلة نوعية بالعقل البشري إلى ماسيحدث فى الآخرة وهذا أسلوب وجدناه فى القرآن الكريم والغاية منه تبيان الربط بين أعمال الدنيا ونتائجها فى الآخرة . أصحاب الجنة مؤمنون آمنوا بالجنة واليوم الآخر فى دنياهم ولم يكذبوا الأنبياء ولا ماأنزل الله من السماء من كتب ، وقد وجدوا ماآمنوا به حقا يلمسونه ويرونه ويعيشونه إنهم يسألون أهل النار بعد أن بينوا لهم أن ما آمنوا به حق هل وجدتم وعد الله حقا . وكان الجواب نعم . وهل يستطيع الكافر أن يقول لا ، إنه يلمس النار والعذاب وهذا ما وضحته لهم رسلهم فى الدنيا. أن في الآخرة حسابا وجنة ونارا.

فلم يصدقوا حتى إذاجاء الوعيد وبعثوا من جديد وجدوا ذلك حقا يرونه ويسمعونه ويحسونه. فأنى لهم أن ينكروا؟ نعم لقد وجدنا ماوعد الله حقا. وعذابهم حق لأنهم كانوا يصدون عن سبيل الله ويريدونها عوجا وهم بعد كل هذا كفروا بيوم الدين. فالقرآن العظيم حتى يبين ظلمهم لنفوسهم وضح سبب وصولهم إلى النار والعذاب.

وزيادة فى تأكيد ما لأهل الجنة وما لأهل النار من صفات جاءت الآية التالية: «وبينهما حجاب» إلى آخرها. فمن الطبيعي أن يضع الله سبحانه حاجزا يفصل بين أهل الإيمان وأهل الكفر ريقف على هذا السور رجال آمنوا بالله وقصروا فى طاعاته ينظرون هاهنا وهاهنا فيعرفون كلا من أهل الجنة والنار هؤلاء وجوههم مبيضة مبتسمة وأهل النار وجوههم مسودّة يلفهم المقت والآسى. وينادى هؤلاء الرجال أهل الجنة أن سلام عليكم لقد منّ الله عليكم بنعمته ونرجوه أن يأذن لنا بدخول الجنة مثلكم، والمؤمن لايقطع أمله من الله سبحانه وهوغافر الذنوب يرحم من يشاء ويعذب من يشاء.

وهؤلاء الرجال الحائرون الخائفون ينظرون إلى أهل النار فينظرون أنواع العذاب فيخافون أكثر وأكثر ويدعون ربهم مستغيثين ربنا لا تجعلنا من

هؤلاء الذين ضلوا وظلموا أنفسهم ولاتدخلنا النار .

إن الله سبحانه يضع بين الكافرين والمؤمنين سورا وحجابا لكن قدرته تعالى جعلتهم يرون بعض ماآل مآلهم .

وتتابع الآيات الكريمة حوار الناس في ذلك الموقف العظيم ومافيه من مفارقات ينادي أصحاب الأعراف الذين يراقبون نعيم الجنة وعذاب النار فيستغيثون تارة ويتحسرون ثانية ويدعون الله أن لا يدخلهم النار ثالثة ينادي هؤلاء على رجال كانوا فى الدنيا من أشد الناس كفرا وعداء للمؤمنين ولما أنزل الله . إنكم لم تنتفعوا لا بمالكم ولاجبروتكم ولم ينفعكم استكباركم عن الإيمان وعن الحق الذى جاء به الأنبياء وعلى مسمع هؤلاء من أهل النار يذكر رجال الأعراف بما فعلوه فى الدنيا . لقد أقسمتم أن لاينال الله برحمة الفقراء والمستضعفين من المسلمين انظروا إليهم أليسوا هم فى نعيم ، إنهم يستحقون، ويلتفت أصحاب الأعراف ليكملوا حديثهم يقولون لأهل الجنة . ادخلوا الجنة وهي حق لكم بسبب إيمانكم فلا خوف عليكم ولا حزن لكم بعد هذا .

ويشتد العذاب بأهل النار فيسقون من ماء كالمهل يشوي الوجوه فيصيحون وينادون هؤلاء الفقراء الذين عذبوهم بالأمس وأذلوهم ينادون أهل

الجنـة. أن أفيضوا علينا شيئا من الماء لقد احترقنا فيأتيهم الجواب من أهل الجنة إن الله حرمها على الكافرين لقد كانت شهواتهم فى الدنيا فى لذة الشراب والأكل وهاهو الله يعذبهم بما يحبون يحرمهم من الشراب والأكل . وينصف أهل الجنة منهم .

وتأتي النتيجة المنطقية العقلية ملحة واضحة ، إن العذاب الذى هم فيه يستحقونه لأنهم اتخذوا دينهم لهوا ولعبا وتبعوا غرور الدنيا ونسوا ربهم فاليوم ينساهم الله لأنهم جحدوا بآيات الله ورفضوا الإيمان واتبعوا الشيطان فكان مصيرهم جهنم وبئس المصير ونحن ننظر فى هذه الآيات الكريمة نجد أن الحوار الذي يدور إنما هو بين ثلاث نوعيات من البشر . فالمؤمنون فى طرف والكافرون فى طرف أما الطرف الثالث فهم رجال الأعراف الذين يقفون شاهدين على ماآلت إليه أحوال كل من الفريقين ومذكرّين ماكانوا يفعلونه فى الحياة الدنيا .

فحتى يستخلص المسلم النتائج العقلية المنطقية جاءت الآيات موضحة موقف الشاهدين ليزيد الموقف الناتج تأكيدا على تأكيد . إنهم يشهدون على الطرفين وماكان كل طرف يفعل فى الحياة الدنيا وما استحقه كل طرف من نعيم أو جحيم. إنه وعد الله الذى وعده لكل الطرفين فى كتبه وعلى ألسنة رسله وأنبيائه والله لايظلم أحدا بل هم أنفسهم يظلمون بإتخادهم طريق الضلال

والشيطان طريق الوصول إلى معاداة الأنبياء وطريق الوصول إلى جهنم والمصير البائس .

والحوار بين أهل الإيمان وأهل الكفر فى التصوّر القرآني يفتح افاقا واسعة أمام عقل الإنسان يقارن بين هذه الحيَاة الدنيا وتلك الحياة الأخرى يقارن الأعمال سوءها وحسنها ويسقطها على عالمه الدنيوي فيصل إلى النتيجة السريعة الموصلة به إلى الاعتراف أمام خالقه بأنه دون إيمان كامل مطلق لن يكون مصيره سوى مصير هؤلاء الجاحدين الكافرين . إن طبيعة الحوار بين المؤمنين والكافرين فى الآخرة برهان آخر لعقل الإنسان حتى لايضل ويتبع خطوات الشيطان . وإذا كانت براهين الخلق وحدها تعرّف العقل البشري على خالق هذا الكون فإن العقل المشكك وغير المطمئن بحاجة إلى براهين أخرى ليصل إلى الإيمان وهذا الحوار بين أهل الإيمان وأهل الكفر برهان آخر ليميل ذلك العقل إلى الإيمان والخلاص من شكوكه وعدم اطمئنانه .

والحديث عن الدنيا والآخرة حديث طويل فى القرآن الكريم وهو محوري فيه لأن خلق الله للانسان يرتبط بهذا الامتحان الدنيوي وبتلك النتائج الأخروية التي تحدث القرآن عنها طويلا ولعل الحوار الذي يضعنا القرآن الكريم أمامه هو حوار التأكيد على ماستؤول إليه الأمور ولعله يأتي لتقريب

نفسها إلى العقل البشري .

فهناك المكان وهو الجنة والنار وهناك الزمان وهو زمان رب العالمين أي زمان الآخرة والجنة والنار وهناك الأشخاص من كل صنف .

هناك المحكمة وهناك التذكير والعتاب وهناك الشاهدون . ولكل هيهات ينفع العتاب والترجي . لقد انتقل الانسان إلى عالم الخلود . وانهى عالم الدنيا عالم الامتحان فكل نفس بما كسبت رهينة . وكل إنسان يستحق الجزاء الذى يستحقه. ومن يزرع إيمانا وتقوى يحصد رضا ربه وجنات النعيم ومن يزرع كفرا وعنادا وغرورا يحصد الجحيم والذل والخسران .

ويقول تعالى فى سورة سبأ : « وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذى بين يديه ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين (٣١) قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين (٣٢) وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفربالله ونجعل له أنداداوأسرّوا الندامة لما رأوا العذاب وجعلنا الأغلال فى أعناق الذين كفروا هل يجزون إلا ماكانوا يعملون » (٣٣)

«ويوم يحشرهم جميعا ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون (٤٠) قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون» (٤١).

لقد جهر الكافرون بالقول فقالوا لن نؤمن بهذا القرآن الذى أنزل على محمد - صلى الله عليه وسلم - ولن نؤمن بالكتب الأخرى التى سبقته من توراة وإنجيل ولن نؤمن بما يعد ربك من آخرة وعذاب ونعيم.

لقد قالوا قولهم هذا فانظر كيف سيصير إليه حالهم يوم الحساب. إنهم يقفون أذلاّء خاسئين ينتظرون أمر الله فيهم. ستراهم حائرين يرجع بعضهم لبعض ويذكرون بعضهم الكلام ويلومون بعضهم ويوبخون أنفسهم وأشياعهم على ما اقترفوه من كفر بعد أن كانوا في الدنيا متعاونين على الإثم والعدوان متناصرين ضد التوحيد والإيمان ويبدأ الحوار حيث يقول الذين كانوا فقراء مستضعفين واتبعوا رؤساءهم وانقادوا لهم في الكفر ومعاندة الحق يقولون لولاكم لما عذبنا ولولا أنتم كنتم تصدوننا عن الإيمان لما وقعنا في هذا الموقف المشين لولا إكراهكم لنا لاتبعنا الدين الحق وآمنا بما جاء به النبي محمد - صلى الله عليه وسلم -.

ويرد عليهم زعماؤهم الذين استكبروا عن الإيمان لسنا نحن الذين صددناكم عن الإيمان بل أنتم مجرمون لأنكم رأيتم الحق فلم تتبعوه.

ويجادلهم المستضعفون بل أنتم مكرتم بنا ليلا نهارا فجعلتمونا نتبع أهواءكم ونضل مثلما ضللتم . ونشرك بالله ونعبد الأصنام .

وبعد هذا الحوار بين أشياع الكفر المستضعفين والمستكبرين لامناص من الندامة على ما اقترف الطرفان . فها هم يسرّون الندامة . يندم المستكبرون على ضلالهم وإضلالهم ويندم المستضعفون على ضلالهم واتباعهم المضلين . هاهي الندامة تبينت في أسرار وجوههم فالوجوه كئيبة مكسوفة مسودة .

وهاهي الأغلال توضع في أعناقهم أجمعين ولايجزون إلا بما كانوا يفعلون ففى هذا الحوار لون آخر من الجدل ، هو بين الكافرين أنفسهم . فلما شهدوا العذاب إذا بهم يتحاورون ، ولايطول حوارهم لأنهم يدركون أن العذاب قريب قريب . وهذا الحوار فرصة لهم حتى يتبيّن كل فريق حجة الطرف الآخر وهي حجة واهية ضعيفة مضلّة والقرآن العظيم من خلال هذا الحوار يعلمنا ويعلم عقولنا أن مايقع من المحاورة بين الرؤساء والأتباع وبين الأشراف والضعفاء يوم القيامة إنما تعبير بالماضي عن المستقبل لتحقق وقوعه لأن الذي

سيفعله الله بالمستقبل بمنزلة ما قد كان وجد لتحققه وهذا من الاعجاز القرآني .

إن المنظر الذى يتصوره العقل البشري منظر المفارقة والاندهاش ، منظر النتيجة والحقيقة الواقعة . حوار بين طرفين من صنف واحد . الجميع ضالون ، هذا يلوم الآخر والاخر يحمل المسؤولية على ذلك . وتكون النتيجة عذابا لكلا الطرفين لأنهما يستحقان وماقدمت أيديكم سوف تجدونه يوم القيامة أمامكم . فلا تتلاوموا لأن عذاب الله واقع والله لايخلف ميعاده .

ويقول تعالى فى سورة الصافات « فإنما هي زجرة واحدة فإذا هم ينظرون (١٩) وقالوا ياويلنا هذا يوم الدين (٢٠) هذا يوم الفصل الذي كنتم به تكذبون (٢١) احشروا الذين ظلموا و أزواجهم وماكانوا يعبدون (٢٢) من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم (٢٣) وقفوهم إنهم مسؤولون (٢٤) مالكم لاتناصرون (٢٥) بل هم اليوم مستسلمون (٢٦) وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون (٢٧) قالوا إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين (٢٨) قالوا بل لم تكونوا مؤمنين (٢٩) وماكان لنا عليكم من سلطان بل كنتم طاغين (٣٠) فحق علينا قول ربنا إنا لذائقون (٣١) فأغويناكم إنا كنا غاوين (٣٢) فإنهم يومئذ فى العذاب مشتركون (٣٣) إنا كذلك نفعل بالمجرمين (٣٤) إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون (٣٥) ويقولون أئنا لتاركو

آلهتنا لشاعر مجنون (٣٦) بل جاء بالحق وصدق المرسلين (٣٧)»

فحين يأمر رب العزة إسرافيل بالنفخة الثانية إذا هم ينظرون فى وجوه بعضهم يتساءلون عن الخطب العظيم . يبعثهم الله من جديد فيقفون بين يديه ينظرون إلى أهوال يوم القيامة .

ويبدأ الحوار بينهم وبين أنفسهم ومن ثم بينهم وبين من أضلوهم يقولون صائحين ياويلنا إنه يوم الدين فيتحسرون ويتدمرون لما فرط منهم فى الحياة الدنيا . فيجابوا لاتندموا ولاتتحسروا إن هذا اليوم هو يوم القضاء والفصل بين المؤمنين والكافرين ويأمر سبحانه وتعالى الملائكة أن يحشروا الذين كفروا هم وأزواجهم وما كانوا يعبدون . احشروهم ونظراءهم ممن عبدوا الأصنام وأشركوا بالله اذهبوا بهم إلى الجحيم الذى يستحقونه واحبسوهم حتى يُسألوا عما ارتكبوه من أعمال وأقوال صدرت عنهم فى الدنيا .

وفى هذا الجو المأساوي لدى الكافرين يقبل بعضهم على بعض يتساءلون ويتلاومون. زعماء أضلوا وأتباع أضلوا يوبخون بعضهم بعضا . فيقول الأتباع للمتبوعين إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين ليكون إغواؤكم أقوى وأشد. وفتنتمونا حين كنتم تحلفون الايمان وتكذبون وتقولون إن كلامكم هو الحق.

ويرد عليهم الزعماء الكافرون . إنكم لم تكونوا مؤمنين وقد تعودتم الكفر من دوننا وماكان لنا عليكم سلطان وقوة حتى نجبركم على الضلال . لقد كان فيكم استعداد للطغيان والكفر فلذلك استجبتم لنا واتبعتمونا .

ويأتي قول الحق فاصلا بين تخاصمهم باعترافهم لقد كانت تلك الأسباب كافية حتى نصل إلى هذه النتائج . لقد حق عذاب الله علينا وإنا وإياكم لذائقون العذاب . لقد كنا في ضلال وأغويناكم إنا كنا غاوين نزيّن لكم الكفر والباطل والضلال والعصيان ودعوناكم إلى ذلك فاستجبتم فلا عتب علينا ولا لوم .

إنهم جميعا مشتركون فى العذاب لقد كانوا مشتركين في الغواية والضلال فى الدنيا فهاهم اليوم يشتركون فى العذاب وهذه نتيجة منطقية . وهذا قضاءالله لاتبديل فيه لقد حق القول على الكافرين كماحق على من سبقهم من الطغاة المجرمين.

ثم يبين القرآن العظيم بعض الأسباب التى أودت بهم إلى الجحيم . فقد كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون ويرفضون التوحيد ، ويقولون كيف نترك آلهتنا لأجل شاعر مجنون اسمه محمد - صلى الله عليه وسلم -.

إذاً لقد كان استكبارهم ونكرانهم للتوحيد ، ومن ثم رفضهم للرسول عليه الصلاة والسلام هما سببان كافيان ليذوقوا هذا العذاب الذى هم فيه .

إنه الحوار نفسه بين الكافرين وأتباعهم ، الأسباب واحدة والنتائج أيضا واحدةوحوارهم وتلاومهم لن يفيد لأنهم محضرون أمام رب الخلق وأمام محكمته الالهية التى تنصف المؤمن من الكافر .

ويقول تعالى فى سورة غافر (النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب (٤٦) وإذ يتحاجوّن فى النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا نصيبا من النار (٤٧) قال الذين استكبروا إنا كل فيها إن الله قد حكم بين العباد (٤٨) وقال الذين فى النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب (٤٩) قالوا أولم تك تأتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى قالوا فادعوا ومادعاء الكافرين إلا فى ضلال » (٥٠)

يتخاصم أهل النار فيما بينهم ومنهم فرعون وأتباعه وكالعادة الذى يجري عليها الطرفان يقول الضعفاء للزعماء والجبارين إنا كنا معكم من أتباعكم وقد سرنا معكم فى الضلال فهل أنتم تدفعون عنا شيئا من العذاب ؟ هل تتحملون عنا

قسطا من هذا الجحيم الذي لايطاق ؟ لكن الزعماء وعلى رأسهم فرعون لايستطيعون دفع النار عن أنفسهم فكيف يدفعونها عن هؤلاء . إن جوابهم المنطقي هو إنا وإياكم فيها وهذا حكم الله بين العباد .

وعندما لايجد أهل النار مناصا من الرضوخ لنتائج عصيانهم يتوجهون إلى الملائكة يتوسطون لديهم أن يطلبوا من الله تخفيف العذاب عنهم فيأتي الجواب العقلي المنطقي من الملائكة . كيف نطلب تخفيف العذاب عنكم وأنتم رفضتم ما جاء به الرسل لكم ، ألم يبعث الله الانبياء بالبينات ؟ قالوا نعم لقد جاء الرسل بالبينات ، إذا لاتطلبوا تخفيف الجزاء الذى تستحقون . وادعوا ماشئتم أن تدعوا فإن الله لايستجيب لكم لأن أسباب وصولكم إلى النار لاظلم فيها ولاتعسّف وكل يجزى بما عمل وليس الله بظلام للعبيد .

نلاحظ فى الآيات الكريمة نوعين من الحوار ، حوار بين زعماء الكفر من جهة وأتباعهم من جهة وحوار بين أهل النار جميعا وملائكة الرحمن .

فى الحوار الأول خصام ولوم ولات حين اللوم أو الخصام ، وفى الحوار الثاني تبيان لما آلت إليه أوضاع الكافرين من عذاب ومهانة وضعف واستنجاد

بالملائكة ومن ثم رد الملائكة عليهم الرد المنطقي العقلي ألم يأتكم الرسل . ألم تأتيكم البينات ؟ ألم يأتكم الانذار ؟ ألم يقل لكم الأنبياء أن هناك آخرة وعذابا ونعيما ؟ لقد كذبتم المرسلين فهذا هو الجزاء العادل لكم ولأشياعكم .

ولعل الحوار الذى يدور فى النار بين الكافرين وبين جلودهم هو من الحوارات الهامة فى القرآن الكريم. فإلى جانب طبيعة هذا الحوار يوضح القرآن الكريم هذه المعجزة الإلهية وهي إنطاق الجلود والأيدي والأرجل والألسنة . كل شيء يشهد عليك أيها الانسان حتى جلدك فكيف المفر ؟ وأين؟

يقول تعالى فى سورة فصلت : « حتى إذا ماجاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون (٢٠) وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون (٢١) وماكنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون (٢٢) وذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين » (٢٣).

فأهم ما نلاحظه فى هذا الحوار هو ذلك الاستعطاف الصادر عن الكافرين، فهم يرجون أن تبقى أمورهم مستترة ويشكون فى قدرة الخالق على كشفها

بدقائقها ، ولكي يزيد فى مأساتهم فقد أنطق ربهم أبصارهم وسمعهم وجلودهم . وكم هي الدهشة حين يشهد علي الانسان جزء منه ، لا يستطيع منعه ولاحبسه .

بكل حسرة يقولون لجلودهم لم شهدتم علينا . وكأنهم يعتبون على جلودهم التى هي جزء منهم لكن الله سبحانه ينطق الجلود بالمنطق والمحاكمة العقلية ، إن الله أنطقنا وهو الذي أنطق كل شيء وكفرتم به وبقدرته وهوالذى خلقكم وإليه ترجعون . كل ما كنتم تخفونه تظنون أن الله غير قادر على إحضاره أمامكم وتظنون أن الله لن يشهد عليكم الجلود والأبصار والسمع . وها نحن نشهد عليكم بقدرة خالقنا فلا يخفى أمام الله شيء . وها أنتم ظننتم فأوصلكم الظن والشك إلى الخسارة ، إلى النار التى أعدت للكافرين والمشككين والذين أنكروا على الله قدرته على إنطاق كل شيء من خلقه حتى جلودكم وأسماعكم وأبصاركم .

مما سبق نلاحظ أن الحوار القرآني البشري فى مسألة الآخرة والجنة والنار هو حوار يرمي إلى مصداقية القول الحق الذى كفر به الكافرون فكانت عاقبتهم هذه النار لقد وضح القرآن الكريم من خلال هذا الحوار جوانب عدة على المسلم أن يفهمها فى سياقها وظلالها المتصورة .

فالحوار بين الكافرين وأتباعهم حوار اللوم وتحميل المسؤولية على عاتق كل طرف ، يحاول بعضهم التنصل من مسؤولية إضلالهم ويحاول بعضهم الآخر إلقاء اللوم على الضالين حتى يخفف عنهم العذاب ولكن دون جدوى فالجميع يجزون بما كانوا يكفرون، والحوار بين الكافرين والمؤمنين هو حوار بين وجهين متناقضين ؛ الكافرون ضلوا وسخروا من المؤمنين فى الدنيا وكان نصيبهم العذاب والمؤمنون سعيدون بما وعدهم الرحمن ووجدوه حقا فهم فى نعيم وظلال .

والحوار بين الملائكة وبين الكافرين حوار الطرف الشاهد على كفرهم وحوار الكفر الذى ليس لديه سوى الترجي والاستعطاف .

وإذا حاولنا تتبع آيات الكتاب العظيم لوجدنا الكثير من الحوار بشتى أشكاله، فهناك الحوار بين الشيطان المضلّ والكافرين فهو يبين تنصل الشيطان من إغوائه لهم ويبين حسرتهم وخسرانهم وندمهم .

وهناك حوار بين المؤمنين أنفسهم فهو حوار الاطمئنان والسكينة والرضا والتسليم والنعيم .

وجميع أنواع الحوار يقصد من ورائها أن ما يجري فى الدنيا سوف تكون نتائجه واضحة فى الآخرة ويقصد من ورائها أيضا تثبيت إيمان المؤمن بالله

واليوم الآخر ودحض مزاعم الكفار وحربهم ضد المسلمين والأنبياء وضد الخير والصلاح .

ويقصد من ورائها - وهذا هو مقصودنا - أن يتثبت العقل من المحاكمة المنطقية التى تربط الحقيقة بالمعجزة وتربط الأسباب بالنتائج ربطا واقعيا منطقيا. وهذا ما يدعو العقل نفسه لتثبيت الايمان وترسيخه فى القلب والروح والنفس تثبيتا لازيغ فيه ولاتشكيك .

الفصل السابع

القرآن وحوار العقل ومعجزة كتاب الله

أنزل الله سبحانه وتعالى قرآنه العظيم وتعهد بحفظه ، وعظمة هذا الكتاب لا تنحصر في ميزة أو أكثر . فالميزات التي يمكن أن تتحدث عنه لا تنحصر وإذا جاز لنا القول فإننا نرى أن ميزاته مثل كلماته فلو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي لقد جاء متحديا العرب فى عقائدهم ولغتهم وتفكيرهم ومتحديا العالم البشري كله بعلومه وفكره وحياته الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والنفسية . تحدى البشر فى عقولهم القاصرة رغم أنه دفعهم ودفع عقولهم نحو المعرفة والعلم والتحليل وعدم الركون للمعارف البسيطة، وحتى يصل الانسان إلى حقيقة الايمان بالله إيمانا صحيحا فقد جاءت الآيات القرآنية الكريمة محاورة عقله فى طبيعة هذا الكتاب الذى أنزله الله سبحانه على نبيه محمد - صلى الله عليه وسلم - ومحاورة عقله بما حواه من معارف وعلوم يعجز عنها كل مخلوق وعن الالمام بها كل عقل بشري .

ينزل القرآن الكريم فينكره الجاهلون والكافرون وينسبونه إلى أساطير الأولين حاورهم وبين لهم أنه فيه ذكرهم أفلا يعقلون ؟ وحاورهم أن فيه أخبار أقوام سالفة لم يعرفوها أو يسمعوا بها من دون التعرف عليها من خلاله .

وحاورهم أن فيه الحديث عن المستقبل القريب والبعيد وهم عن التنبأ عاجزون .

وحاورهم فى عقولهم ودلهم على طريق المعرفة وهم ،من دونه جاهلون ورغم ذلك

رفضوا حوار العقل ورفضوا القرآن لأنهم ظلموا عقولهم وأحبوا أن يظلوا جاهلين . فقدوا القدرة على الابصار والبصيرة فسقطوا فى مهاوي التخلف ولم يصمدوا طويلا أمام معجزة الكتاب العظيم الذى اختاره الله سبحانه وتعهد بحفظه ، اختاره لأمة إن هي آمنت تفوقت على غيرها من الأمم فى علومها وسلوكها وفتوحاتها وعظمة دنياها ودينها . وسقط الجاهلون الكافرون لأنه حسب المنطق العقلي وقانونه لايصمد الجهل أمام العلم ولايصمد الصّغار أمام العز والرفعة ولايصمد الظلام أمام النور فاندحروا واندحر جهلهم واندثروا وظل القرآن دستورا لمن آمن بالله ووحّد وآمن برسوله محمد - صلى الله عليه وسلم - .

يظل القرآن الكريم بحفظ الله لأنه الكتاب الذى من دونه تتخبط حياة الناس الاجتماعية والسياسية والعلمية وغيرها إنه ليس كلاماً وضعيا حتى لا يناسب جميع العصور وجميع العقول وجميع مناطق الجغرافيا .

يظل القرآن العظيم بحفظ الله ويظل حواره يفتح أمام العقل الجدال المقنع المنطقي إنه دفع دائم كي يصل العقل البشري إلى سلامة الذوق وسلامة المعرفة وسلامة الواقع وسلامة المعالجة لكل مشاكل الكون والبشر ومن ثم سلامة

الخروج من امتحان الدنيا إلى الآخرة وسلامة رضا الله سبحانه وضمان الفوز بالنعيم المقيم .

يظل القرآن العظيم بحفظ الله ويظل حواره مع العقل البشري ليصدق عن ثقة وعلم وقناعة وإيمان . ليصدق العقل البشري بربطه بين السبب والنتيجة ، وربطه بين الحقائق ربطا علميا يسبق العلم ذاته بل يسير أصحاب العقل والعلم على طريقه ليفلحوا .

يقول تعالى في سورة الأنعام «قل أي شيء أكبر شهادة قل الله شهيد بيني وبينكم وأوحي إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ آإنكم لتشهدون أنّ مع الله آلهة أخرى . قل لا أشهد قل إنما هو إله واحد وإنني بريء مما تشركون » (١٩).

نلاحظ فى هذه الآية الكريمة تكرار لفظة قل أربع مرات ، وهذا عائد بطبيعة الحال لأمر الله سبحانه وإفهامه للرسول - عليه الصلاة والسلام - كيفية الرد على الكفار ، وورد فيها استفهام فى قوله آإنكم . وجميع ذلك يدلنا على طبيعة الحوار القائم بين رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وبين الكفار . ومحور هذا الحوار هو القرآن الكريم لقد كذب اليهود والنصارى على قريش حين قالوا لهم إن ماجاء به محمد ليس من النبوّة فى شيء وقد طلبوا من الرسول

عليه الصلاة والسلام أن يأتي بمن يشهد أنه رسول الله فرد عليهم القرآن العظيم على لسان النبي الأكرم بصيغة السؤال التعجيزي المتحدّي . «قل أي شيء أكبر شهادة». فالله هو الشهيد على النبوة والدليل الإلهي على شهادة رب العزة هذا القرآن الذى أوحى إليّ إنه الكتاب العظيم الذي أرسله الله وأنزله لأنذركم به ولأخوفكم عذاب جهنم وغضب الله إن لم تؤمنوا بالله ورسوله وتتركوا ما أنتم عليه من العبادات الباطلة .

ها أنتم ترون بأم أعينكم وتشهدون على أنفسكم بأنكم تعبدون من دون الله آلهة لا تضر ولا تنفع . إنني لا أشهد أن آلهتكم هذه تستحق العبادة . إن ربي إله واحد وأنا به مؤمن موحد مثبت وحدانيته وهو الله الذى لا شريك له وأنا بريء من كل شيء تعبدونه من دون الله الخالق الواحد .

ويقول تعالى فى سورة يونس «وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لايرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله . قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي إن أتبع إلا ما يوحي إلي إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم (١٥) قل لو شاء الله ماتلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون (١٦) فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو كذب بآياته إنه لايفلح المجرمون» (١٧)

وفي نفس السورة يقول تعالى «وماكان هذا القرآن أن يفتري من دون الله ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين (٣٧) أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين (٣٨) بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله كذلك كذب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين (٣٩)»

فالحوار القرآني فى الآيات الأولى يبين جهل الكفار من جهة ومرجعية القرآن إلى الله سبحانه من جهة أخرى.

وحتى يكون العقل على بينة من صدق كتاب الله وصدق تنزيله من رب العالمين جاء الحوار مبينا دور النبي - صلى الله عليع وسلم - في تبليغ هذا القرآن للناس وأنه ليس من صنعه بل هو لله رب العالمين . فإذا سمع هؤلاء الكفار بعض آياته الكريمة رفضوها لأنهم لايتوافقون معها ولاتوافق عقولهم وعباداتهم الوثنية المتخلفة قالوا لو أن محمدا يأتي بقرآن غير هذا، لماذا ؟ لأن هذا القرآن يدعو إلى الوحدانية وهم يحبذون التعددية . لأن هذا القرآن يرفض سيادة الناس على بعضهم وظلمهم للأضعف ، إنهم إذا يريدون حسب ظنهم أن يؤلف النبي - صلى الله عليه وسلم - قرآنا يتوافق مع أهوائهم وعقائدهم متجاهلين أن هذا القرآن هو تنزيل من لدن إله قدير. ويدل موقف النبي - صلى الله عليه وسلم - على مدى صدق النبوة حيث رد عليهم بأن هذا القرآن هو تنزيل من الله

وليس لي يد فى تأليفه أو تغيير مابه وإني أخاف عذاب ربي فلا تبديل لكلمات الله . ولو كان بإمكاني تأليفه لألفته منذ زمن ولتلوته عليكم منذ زمن بعيد وأنا أعيش بينكم ولكن الله أذن أن ينزله فى هذا الوقت لأنه هوالعالم بزمنه وزمن تنزيله . وتنزيله وزمنه منوطان بحكمة الخالق وليس بقدرة البشر حتى لو كانوا أنبياء. إن الذى يفتري على الله الكذب هو مجرم كذاب وكل من يدعي أن هذا القرآن من تأليف بشر هومجرم بحق الدين وبحق نفسه وبحق الناس بل هو مفتر كذاب كافر .

وفى الآيات الأخرى يجري القرآن الحوار حول صدقه وتكذيب الكفار له .

فهو لم يكن اختلاقا اختلقه محمد - صلى الله عليه وسلم - . لقد زعم الكفار ومازالوا يزعمون أن محمدا - صلى الله عليه وسلم - أتى بهذا القرآن من عند نفسه على سبيل الافتعال والاختلاق ولكن تصديق الذي بين يديه ، إن الله سبحانه أنزل هذا القرآن مصدقا لما قبله من الكتب التى أنزلها على أنبيائه كالتوراة والانجيل . ومحمد - صلى الله عليه وسلم - كان أميًا لم يقرأ ولم يكتب ولم يجتمع بأحد من العلماء المعاصرين له من يهود ونصارى .

وهذا القرآن العظيم يفصل مافى هذه الكتب من العقائد والشرائع والحلال والحرام والفرائض والأحكام وفيه إيحاء إن هذا القرآن حوى ما فى الكتب التى سبقته وزادها تفصيلا وإيضاحا ولا شك فى هذا القرآن .

ويستمر كتاب الله الكريم بإيضاح مصداقية آياته ففى الآية (٣٨) يقول تعالى : فى صيغة السؤال الاستنكاري : أيقول المشركون افترى محمد - صلى الله عليه وسلم - القرآن واختلقه من تلقاء نفسه فقل يامحمد لهم أن يأتوا بسورة مثله . فإ كان الأمركما يقولون ويدعون فعليهم أن يأتوا بسورة من مثل هذا القرآن شبيهة به فى فصاحته وبلاغته وحسن نظمه فأنتم عرب فصحاء بلغاء وادعوا من استطعتم من دون الله واستعينوا على الإتيان بسورة مثل هذا القرآن إن كنتم تقدرون .

نلاحظ أن هذا التحدي الذى نجده فى حوار القرآن مع المشركين يختزن بكل قوة صدم العقل البشري صدما يؤلمه ومن ثم يوقظه . إن الاعجاز والتحدي موجود فى الاستخفاف بالمشركين الذين لم يستخدموا عقولهم ليعرفوا عجزهم أمام هذا التحدي الكبير . ويدركوا أن هذه الآيات ماكانت ليأتي بها بشر لما فيها من أسرار تفوق مستوى البشر فإن حركوا عقولهم باتجاه الصح فإنهم يفتحون باب المنطق العقلي الذى يبين لهم الطريق نحو حقيقة الايمان بالله وبكتبه ورسله واليوم الآخر .

لقد تحداهم القرآن تحديا قويا ورغم ذلك فإن حوار الرسول - صلى الله عليه وسلم -تحداهم خلال أربعة مراحل أو مراتب . فتحداهم بكل القرآن فى

سورة الإسراء الآية (٨٨) بقوله تعالى : «قل : لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا» ثم تحداهم بعشر سور وذلك فى سورة هود الآية (١٣) : «قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين» ثم تحداهم بسورة واحدة كما فى سورة البقرة الآية (٢٣) «وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين» ثم تحداهم بحديث مثله قال تعالى فى سورة الطور «أم يقولون تقوّله بل لا يؤمنون (٣٣) فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين (٣٤)»

ورغم الحوار المنطقي والتحدي والعجز الذى وقع فيه المشركون ويقع فيه كل مشرك فإنهم كذبوا بما فى هذا القرآن من ذكر الجنة والنار والحشر والصراط والميزان وغير ذلك مما لم يعلموا منه شيئا لأنهم كانوا يذكرون ذلك . ولم يأتهم بيان مايؤول إليه ذلك الوعيد الذى توعدهم الله به فى القرآن من الانتقام الشديد والأخذ السريع حتى يتبين لهم أنه صدق أم كذب . لقد كذبوا بالقرآن قبل أن يتمعنوا فى لفظه ومعانيه وبعد أن أدركوا أنه معجز لهم لكثرة ماتحداهم ظلوا مصرين على الكفرتمردا وعنادا حتى أذن الله بالفتح العظيم ودخلوا الاسلام ففهموا مالم يفهموه من قبل .

ليس غريبا أن يكذبوا القرآن لأنهم ليسوا أول الأقوام التى تكذب أنبياءها فقد كُذّب الأنبياء : نوح وإبراهيم وإسحق وموسى ويعقوب وعيسى وداود وسليمان وصالح وشعيب وهود . إن هؤلاء الأنبياء توعدوا أقوامهم وأنذروهم ولكن صلفهم جعلهم ينكرون صواب الدعوة، كل دعوة، فضلوا، فكانت عاقبتهم عبرة كبرى لمن بعدهم. ونهاية الظالم هي نهاية الجاهل الذى يرفض منطق الحوار والعقل وبالتالي يرفض القرآن الكريم لأن القرآن عقل ومنطق وبراهين وعقولهم تحتاج تنظيفا حتى تصل إلى تذوّق القرآن وفهم معانيه فهما عقليا واعيا .

ويقول تعالى فى سورة الأحقاف « وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين (٢٩) قالوا ياقومنا إنّا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم (٣٠) ياقومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم (٣١) . ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز فى الأرض وليس له من دونه أولياء أولئك فى ضلال مبين (٣٢) » هذه الآيات الكريمة تبين أن الجن أو نفرا منهم قد وجههم الله لرسوله الكريم ليستمعوا للقرآن وما إن سمعوه حتى أنصتوا وأدركوا أنه ليس كلام بشر بل هو من عند الله فآمنوا به وذهبوا إلى أقوامهم يتحدثون لهم عما سمعوه ويدعونهم للإيمان،

طبيعي أننا لا نرى فى هذه الآيات حوارا مباشرا أو حوار المتضادَيْن بل هو قول على قول . فلكثرة الدهشة قال بعضهم لبعض انصتوا . ثم ولوا إلى قومهم منذرين فقالوا لأقوامهم : إننا سمعنا كتابا لم ينزل مثله بعد توراة موسى، وقال بعض المفسرين : إن هؤلاء الجن كانوا على دين اليهودية .. فأدركوا أن ماسمعوه يأتي مصدقا لما جاء فى توراة موسى عليه السلام والكتب السماوية جميعها . وهذا القرآن يهدي إلى الحق وإلى العقيدة الصحيحة وإلى طريق الايمان والعمل الصالح. وحتى تتم دعوتهم لقومهم طلبوا منهم الاستجابة لهذا القرآن الداعي إلى الله عز وجل والايمان به ليغفر لهم ذنوبهم وينقذهم من عذاب جهنم .

فالاعجاز العقلي المنطقي من خلال هذه الآيات يعطينا صورة من صور الايمان بالقرآن وبمنطقه العقلي . لكننا لو عدنا إلى الآيات رقم ٧ و ٨ و٩ من نفس السورة وقارنا بين الموقفين لوجدنا الصورة تطرق العقل بصدمات قوية حتى يصحو تماما ويتنبه للحوار القرآني ومقاصده .

وتقول الآيات الكريمة (وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للحق لما جاءهم هذا سحر مبين ٧ أم يقولون افتراه قل إن افتريته فلا تملكون لي من الله شيئا هو أعلم بما تفيضون فيه كفى به شهيدا بيني وبينكم وهو الغفور

الرحيم ٨) فالكفار يرفضون الايمان بهذا القرآن ويقولون عنه إنه سحر بينما نجد الجن وهم مالهم من قدرات مختلفة عن بني الانسان أنصتوا له وآمنوا به وأدركوا أنه تنزيل رب العالمين .

فإذا تقوّلوا بأن محمدا - صلى الله عليه وسلم - قد افتراه فقل يانبي الله إن كنت قد افتريته - على سبيل افتراضكم فمن يغنيني من عذاب الله ، فلستم أنتم أنفسكم بقادرين على دفع العذاب عني . إن الله شهيد بيني وبينكم وهو العارف بحقائق العالم وأسرار البشر .

فالملاحظ بين الموقفين أن الرسول عليه الصلاة و السلام لم يعان من الجن مثل ماعانى من الكفار . لقد جادله المشركون وأنصت له الجن، وكفر به الكافرون وآمن به الجن. وكم هو الفرق بين العنصرين عنصر الجن وعنصر البشر عنصر الجن الذى من صنفه إبليس اللعين وعنصر البشر الذى من صنفه آدم والأنبياء . إن القرآن الكريم يتحدى المشركين ويسخر منهم . والمدقق فى هذه المقارنة يرى أن القرآن العظيم تحدث عن إيمان الجن وكفر المشركين ليضع أمام العقل البشري عدة تساؤلات أولها : هل المشركون الكافرون أقوى من الجن وأكثر قدرة، هل الكافرون قادرون على أن يطالوا مايطاله أبناءالجن ؟ لقد آمن

هؤلاء الجن بهذا القرآن وليسوا هم مستضعفين لاحول لهم ولاقوة ، لقد آمنوا وهم بكامل وعيهم وثقتهم بصحة هذا القرآن وصدقهه. ثانيها أن هؤلاء الجن حكموا عقولهم لأنهم يريدون الصواب ، أليسوا من مخلوقات الله ؟ ولهم ما للبشر من عوالم عقلية ونفسية خاصة بهم ، ليس الكافرون بأعقل منهم ولا أقوى ولا أعجز فكيف ينكرون أن هذا القرآن منزل من الله والجن بما فيهم من تفوّق واختفاء آمنوا به لأول سماعهم بآياته ؟ ويقول تعالى في سورة الزخرف : (لما جاءهم الحق قالوا هذا سحر وإنابه كافرون ٣٠ وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ٣١ . أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ورحمة ربك خير مما يجمعون ٣٢ .

فى هذا الحوار القرآني يرد الكتاب العظيم على الكفار بمنطق التوضيح حتى يتبين لهم الحق من الباطل . فلما جاءهم القرآن العظيم لينبههم من غفلتهم ويرشدهم إلى الهدى والتوحيد ازدادوا ضلالا وكفرا فقالوا عن القرآن إنه سحر وإنابه كافرون جاحدون لانصدق أنه كلام الله . ولما رأو أن حججهم واهية لا تصمد أمام قوة الحق القرآني وأمام منطق الدين القويم إن منصب النبوة منصب عظيم شريف لا يليق إلا برجل شريف عظيم كثير المال والجاه من

الطائف أو مكة وقد ظنوا أن من يستحق هذا المنصب هو الوليد بن المغيرة من مكة ، أو عروة بن مسعود الثقفي من الطائف وقيل عتبة بن ربيعة من مكة وحجتهم الواهية هي أن محمدا - صلى الله عليه وسلم - رجل فقير ليس ذا مال ولا أولاد وهو يتيم وحسب ظنهم أن النبوة يجب أن تكون لواحد من هؤلاء الوجهاء الأغنياء لأنهم اعتادوا وهم الجاهلون القبليون أن يكون صاحب أي منصب عظيم رجلا عظيما ذا مال وولد وعشيرة. وقد فاتهم أن العظيم هو الذي يكون عند الله عظيما ومقياس العظمة والجاه عند العقلاء إنما هو عظمة النفس وسمو الروح ومن أعظم نفسا وأسمى روحا من محمد - صلى الله عليه وسلم - الذى رعاه الله وأدبه وكمله ، ويرد عليهم القرآن العظيم بحواره المنطقي المتوافق كليا مع منطق العقل . أهم يقسمون رحمة ربك ؟أيمنحون هم النبوه ويخصون بها فلانا دون فلان حتى يقترحوا أن يعينوا من يستحق النبوة ؟ نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا . فجعلنا هذا غنيا وذاك فقيرا وفاوتنا بينهم بالمال والولد .

وإذا كان أمر المعيشة وهوتافه حقير لم نتركه لهم بل تولينا قسمته بأنفسنا فكيف نترك أمر النبوة وهو أمر عظيم وخطير لأهوائهم وشهواتهم .

وكما فضلنا بعضهم على بعض فى الرزق فكذلك نفضل بعضهم ونصطفيهم للرسالة والنبوة .

لقد فاضلنا بينهم فمن فاضل ومفضول ورئيس ومرؤوس وخادم ومخدوم وضعيف وقوي وغنى وفقير ليستخدم بعضهم بعضا فى حوائجهم فيحصل بينهم تآلف وتضامن . وليسير نظام الكون ونظام وجود البشر . ثم لا اعتراض لهم علينا فى ذلك التصرف فكيف يكون فيما هو أعلى منه . ثم لا اعتراض لهم علينا في ذلك التصرف فكيف يكون فيما هو أعلى منه . ولو سوى الله بين العباد في كل الأحوال لم يخدم أحدٌ أحدا ولتعطلت مصالح الناس وتوقفت حركة الوجود الانساني فى الدنيا .

إن رحمة الله أفضل مما يجمعون فى الحياة الدنيا الفانية إن رحمته نبوة فى شخص محمد - صلى الله عليه وسلم - . والعظيم ليس الغني بل هو النبي - صلى الله عليه وسلم - الذى حازهذا الشرف العظيم ولم يحزه عظماء قريش ولا الطائف ولا أي من العرب لم يحز ماحازه الرسول العظيم لا عروة بن مسعود ولا الوليد بن المغيرة ولا غيرهما .

إذا فحوار القرآن يركز على المقارنة بين طبيعة العظمة الدنيوية وطبيعة العظمة النبوية والعقل النيّر المتزن هو الذى يميز بين فضل المال الذاهب للزوال وفضل النبوة والحكمة وأثرها فى سعادة النفوس البشرية والأرواح الانسانية . إن القرآن الكريم الذى أنزله الله على نبيه الحبيب - صلى الله عليه وسلم -

أعظم سرّا وبلاغة ومعنى وأعظم حكمة وعلما من كل ماجاء به العرب القرشيون وغيرهم . إن هذا القرآن العظيم هو المعجزة التى يتحدى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشا والكفار والملحدين ولولا هذا القرآن ونزوله لما كانت نبوة ولا كان شرف لها . فالنبوة للحبيب محمد صلى الله عليه وسلم مقرونة بالقرآن العظيم فهو الذى يتحدى العقول والبلغاء وهو أساس دعوة النبي الناس إلى ديانة التوحيد العالمية ديانة الاسلام العظيمة . ويقول تعالى في سورة الأنعام (وقالوا لولا نزل عليه آية من ربه قل إن الله قادر على أن ينزل آية ولكن أكثرهم لا يعلمون ٣٧ وما من دابة فى الأرض ولاطائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم مافرّطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون ٣٨ والذين كذبوا بآياتنا صم بكم فى الظلمات من يشإ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم ٣٩ "

يصف القرآن الكريم جدال الذين كفروا فيما لا يعلمون فهم يطلبون أن يكون للنبي آية تكون دليلا على نبوته . رغم أن الله سبحانه وبقدرته شق القمر وانهمر الماء من أصابع النبي، لقد طلبوا آية مثل ناقة صالح أو عبور البحر من قبل موسى عليهما السلام . ولم يعلموا أن كثيرا من هذه المعجزات كانت بلاء على أصحابها لأنهم لم يؤمنوا ويوحدوا حتى بعد أن أنزلها الله.

ثم يوضح القرآن الكريم أن الله سبحانه ما فرط في شيء إلا وذكره باللوح المحفوظ، فكل دابة تدب على هذه الأرض مهما كانت وضيعة أو كبيرة وكل طائر في السماء مهما كان صنفه خلقه الله ويعلم مصيره . وجميع ما خلق الله معروف لذيه في لوحه المحفوظ . وجميع خلقه من الحيوان والطير والانسان يحشر لديه يوم البعث، وجميع خلقه راجعون إليه .

ثم يقرر القرآن العظيم ردّه على الكفار بقوله الذين كذبوا بالقرآن هم صم وبكم لا يفهمون ما في الكتاب العزيز ولا يتدبرون علمه وخصائصه وهم بكم لأنهم يعرفون الحق ولا ينطقون به ، فنلاحظ أن بلا غة الحوار القرآني اعتمدت التكثيف في اللغة من جهة واعتمدت الكلمات الرامزة من جهة أخرى ، وكانت الآية الكريمة اختصرت الرد على الكفار اختصارا قويا يستغني عن التفاصيل ، فهم صم وبكم وفي ظلمات ، لأن الذى لا يفهم منطق القرآن ولا يقول الحق هو في ظلمة العقل وظلمة البصيرة وظلمة النفس وهذا ما ينطبق على المنكرين الحق في كل عصر ومكان . ولأن القرآن كتاب الله ويخاطب العقل فكل من لايؤمن به لايؤمن بالمنطق الصحيح والعقل المستقيم السليم من الأمراض .

ويقول تعالى في سورة النحل : (وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما

ينزل قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون ١٠١ قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين ١٠٢ ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذى يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين ١٠٣ إن الذين لا يؤمنون بآيات الله لا يهديهم الله ولهم عذاب أليم ١٠٤ إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله وأولئك هم الكاذبون ١٠٥.»

يتركز حوار القرآن حول قدرة الله وعظمته فى تبديل آيات القرآن عن طريق النسخ يجعل الله الآية الناسخة مكان الآية المنسوخة لفظا أو حكما والله أعلم بما ينزل من الناسخ وبما هو أصلح لخلقه ، فلعل ما يكون مصلحة فى وقت يصير مفسدة فى وقت بعده فينسخه ومالا يكون فيه مصلحة حينئذ يكون مصلحة الآن . فيثبته مكانه . إن الحوار هذا يوبخ الكفار ويسخر منهم لأنهم قالوا عن النبي – صلى الله عليه وسلم – إنما أنت مختلق ومتقول على الله. لكنهم لايعلمون حكمة الله فى أحكامه من ناسخ ومنسوخ ولا يميزون الخطأ من الصواب.

وقل يانبي الله ردا على قولهم الذى قالوه إن جبريل عليه السلام هو الذى نزله من عند الله ليثبت قلوب المؤمنين فيزدادوا إيمانا ويقينا واطمئنانا وهو هدى وبشرى لكل مسلم آمن بوحدانية الله .

ويرد القرآن على من تقولوا فى القرآن وأجحفوا بحقه . إن الله يعلم أنهم يقولون إن هذا القرآن يتعلمه محمد من الناس وهو ليس من عند الله حسب زعمهم . وإنما يتعلمه من بعض الذين خبروا التوراة والانجيل . لكن القرآن يقول إن ما تنتسبون تعلّم النبي منه إنما لسانه لسان أعجمي وهذا القرآن كلام عربي واضح مبين ، وأنتم يا قريش فرسان البلاغة والفصاحة وقد عجزتم عن إتيان سورة من مثله مع كونه قد تحداكم ويتحداكم دوما وتعجزون أمامه .

إن الذى يكذب ليس محمدا - صلى الله عليه وسلم - إنما الذى يكذب هو من يكذّب آيات الله العظيمة وتكذيب آيات الله والطعن فيها بهذه الخرافات أعظم الكذب أوهم الذين عادتهم الكذب لايصرفهم عنه خلق ولا دين ولا مروءة. إذا هم يكذبون لأن الكذب عادتهم الدائمة ، فالحوار فى هذه الآيات العظيمة يدور حول مصداقية القرآن وافتراء الكفار فهم يقولون إنما الرسول مفتر. ويرد عليهم بأن هذا القرآن منزل من الله بواسطة جبريل عليه السلام وهذا القرآن عربي اللسان ومازعمهم إلا أوهام لاتستند إلى حقيقة ومنطق. ولعل الحوار العقلي هنا يستند على نقطة مهمة وهي أن الكفار يزعمون أن النبي - صلى الله عليه وسلم - يتعلم القرآن من رجل أعجمي خبر التوراة والانجيل . فكيف يكون زعمهم هكذا والقرآن يتحداهم بلغتهم وفصاحتهم ؟ الحقيقة أنهم قوم

لا يفقهون ولا يعقلون ، ولا يزعم هذا الزعم سوى كاذب مخاتل يرى المنطق والعقلية رأى العيان رلا يإمن ، بل ينحاز إلى طريق الكفر والجهل ومحاربة المنطق والرؤية العقلية الصحيحة الموجودة فى القرآن الكريم .

خاتمة

لاشك أن الحوار القرآني للعقل يعتمد في مجمله على الجدل القائم على المجادلة المبنية على إحكام الدليل بقصد إقناعه دون إكراه . ولما كانت طبيعة الانسان كما أرادها الله طبيعة جدلية وفطرية . فإن القرآن الكريم ركز على أسلوب الحوار الجدلي تركيزا كبيرا . وقد وصف الانسان في القرآن الكريم بكثرة الجدال بل بالوصول إلى قمة المخلوقات بكثرة جداله قال تعالى في سورة الكهف الآية ٥٤ "ولقد صرفنا فى هذا القرآن للناس من كل مثل وكان الانسان أكثرشيء جدلا" وبطبيعة الحال فإن الله سبحانه أودع في هذا الانسان عقلا ومن طبيعة العقل إذا مال إلى النفس أن يكون مجادلا يرغب فى الحوار إما ليظهر نفسه أنه أحق بالاحترام أو أنه يحاور ليصل إلى قناعة تامة إلى اليقين والايمان دون الرضوخ لأمر مفروض دون براهين وأدلة عقلية تناسبه .

وكما أن طبيعة الانسان وتعامله مع وجوده تقتضي التعرف على خالقه ومخلوقات ربه فقد تكونت ملكاته العقلية والنفسية حسب قدرته على المعرفة والتوسع والتبحر فى أجناسها وأقسامها ، وقد جاء القرآن الكريم متدرجا فى طرح معارف الكون . ولذلك يمكن استيعابه من خلال التعامل المتصاعد عقليا .

وبمعنى آخر هناك مافيه من الحوار البسيط الذى يتناسب وعقل الانسان العادي البسيط وهناك مافيه من الحوار العقلي الذى يتصاعد مع عقل العارف والفيلسوف والحكيم .

يقول السيوطي : (قال العلماء قد اشتمل القرآن العظيم على جميع أنواع البراهين والأدلة مامن برهان ودلالة وتقسيم وتحذير تبني من كليات المعلومات العقلية والسمعية إلا وكتاب الله قد نطق به)(١).

لقد رأينا فى الصفحات السابقة من هذا الكتاب كثيرا من الآيات القرآنية التي تحاور العقل حوارا منطقيا له خصوصياته وله سماته المختلفة عن كل ما عرفناه من أنواع علم الكلام " المنطق " والجدال العقلي.

فآيات تتحدث عن الظواهر العلمية حديث العقل للعقل . وهي بالتالي تدعو الانسان للتفكر والتأمل والبحث عن جواب لتلك الأسئلة الاستنكارية التى يطرحها القرآن أمام العقل .

---

(١) الاتقان في علم القرآن ح ٢ -١٣٥

لقد ارتأى العلماء وضع مصطلحات محددة لأساليب الحوار القرآني حتى يبقى للباحث بعض المستندات التي تساعده فى تصنيف أنواع الحوار والهدف منه والغاية الرامية إليه . فقالوا مثلا عن دلالة التمانع : ويستنتج من آيات الله الكريمة أن الخالق واحد . ولو كان للعالم خالقان لم يكن التدبير على نظام إذ لو أراد الله أن يخلق شيئا ويريد الخالق الآخر إماتته لاستحال ذلك لانه أساس تناقض واضح ولايمكن تجزئة الفعل إلى نقيضين متضادين .

وفى مصطلح آخر أطلقوا عليه قياس الاعادة على الابتداء. وهذا ما ينطبق على ما تحدثنا به في الفصل الذى يتحدث عن الموت والحياة وإعادة خلق البشر وقدرة الله على ذلك . كقوله تعالى (كما بدأكم تعودون) الاعراف ٢٩ وكقوله تعالى(كما بدأنا أول خلق نعيده) الانبياء ١٠٤ وكقوله تعالى" أفعيينا بالخلق الأول " ق الآية ١٥ وأطلقوا مصطلح قياس الاعادة على خلق السموات والأرض بطريق الأولى كقوله تعالى (أو ليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم) يس ٨١

وقالوا عن قياس الاعادة على إحياء الأرض بعد موتها بالمطر والنبات كقوله تعالى فى سورة الروم الآية ٢٤ (ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا

وينزل من السماء ماء فيحيى به الأرض بعد موتها إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون.

ومنه أيضا قياس الاعادة على إخراج النار من الشجر الأخضر كما فى قوله تعالى فى سورة يس - (وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحيى العظام وهي رميم ٧٨ قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم ٧٩، الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون ٨٠) .

ونستشف من آيات الكتاب العظيم أن للحوار القرآني وجهتين اثنتين هما :

١- ما ذكر من الآيات الكونية ذات العلاقة الماسة بأصول الدين كالوحدانية والايمان بالملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر وذلك عن طريق التدبير والتفكير ومنه قوله تعالى : فى سورة آل عمران الآية ١٩١ : «إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب ، الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ماخلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار ».

فمثل هذه الآيات تدفع فى عجيب خلقها إلى معرفة الله والخضوع له عز وجل .

٢- ما ذكر من حوار بين الأنبياء وأقوامهم ويراد منه صدم عقل

الكافرين ومناقشتهم نقاشا عقليا لدفعهم إلى ترك الكفر واللجوء إلى الايمان بالله عز وجل وقد رأينا أكثر الآيات القرآنية تستخدم الاستفهام ومنه قوله تعالى: في سورة الطور وقد أوردناها فى سياق الحديث سابقا . «أم خلقوا من غيرشيء أم هم الخالقون (٣٥) أم خلقوا السموات والأرض بل لا يقنون (٣٦) أم عندهم خزائن ربك أم هم المسيطرون (٣٧) أم لهم سلم يستمعون فيه فليأت مستمعهم بسلطان مبين (٣٨) أم له البنات ولكم البنين (٣٩) أم تسألهم أجرا فهم من مغرم مثقلون (٤٠) أم عندهم الغيب فهم يكتبون (٤١) أم يريدون كيدا فالذين كفروا هم المكيدون (٤٢) أم لهم إله غير الله سبحان الله عما يشركون » (٤٣)

وكثيرة هي الآيات السائرة على هذا الأسلوب من الحوار والغاية من ورائها هي إيصال عقل الانسان لغاية واحدة هي الايمان بالله ورسله وكتبه وملائكته واليوم الآخر . لقد قال كثيرون بأن العقل وحده لا يمكن أن يصل الى حقيقة الايمان ونحن نقول بذلك ولكن هذا العقل هوالباب الذي يطرق منه أول سؤال حواري حول الوجود. فلذلك جاء الحوار القرآني مدللا للعقل أولا ثم للنفس والجسد ثانيا .

وطالما أن كتابنا العظيم بين أيدينا فإننا لن نتعب فى حوارنا مع الآخرين

لاقناعهم عقليا ونفسيا بوجود الله ووحدانيته ومهمة الرسل وفضلهم صلوات الله عليهم أجمعين وعظمة كتاب القرآن وفضله في إشعاع النور اليقيني على العقل المؤمن والقلب المنفتح يقول تعالى في أول سورة البقرة .

« ألم (١) ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين (٢) الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون (٣) والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون (٤) » .

إن القرآن العظيم هدى ونور لمن كان على تقوى، وهؤلاء ليسوا عابثين أو ضالين، إن القرآن العظيم هدى للذين يتقون ويؤمنون بالله والغيب ويقيمون فرائض الله وينفقون مما رزقهم الله حلالا وليس حراما وهم أيضا يؤمنون بكتب الله المنزلة على أنبيائه وهم بعد ذلك يؤمنون بيوم القيامة والنشور .

إذا هذا هو القرآن . وهذه هي شروط الايمان وهذه هي طريق سعادة البشرية وما أحوجنا إلى فهم عقلي وروحي ونفسي لكتاب الله العظيم .

وآخر دعواتنا أن الحمد لله على نعمة القرآن ونعمة الإسلام، الحمد لله الذى جعلنا أمة وسطا لنبين للبشرية طريق سعادتها وإنسانية وجودها .

حسن الباشا

ملاحظة :

أرجو أن نكون قد وفقنا الله في انتهاج منهج التحليل لأننا لم نعتمد على مايقوله الكتاب والباحثون حول ما ذكرنا من الحوار القرآني للعقل البشري ، لقد استفدنا قدر الامكان من :

١- تفسير القرطبي فى بعض المسائل اللغوية .

٢- تفسير الشيخ الدرّه فى كتابه إعراب القرآن وبيانه.

وكان القرآن وما يزال هو معيننا الأول فى تناول بحوثنا التى نطرحها أمام القارئ المسلم وغير المسلم . فنرجو المعذرة عن كل تقصير يلمس . فما نحن إلا بشر عاديون جدا أمام عظمة كتاب الله وأسراره التى لا يدركها مخلوق .

الفهرس